الفصل الثامن والعشرون

هجرات الإصلاح الدينى

١٥١٧ — ٦٠

١ — المشهد الإسكنديناوى

(١٤٧٠ — ١٥٢٣)

ما إن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت تقوى الناس قد جعلت الكنيسة تسيطر على اقتصاد اسكندیناوة . وكانت الكنيسة تملك نصف الأرض فى الدنمرك ، وكان يفلحها مستأجرون فى منزلة تقترب من الرق(١) . وكانت كوبنهاجن نفسها إقطاعية للكنيسة ، ورجال الإكليروس والنبلاء يتمتعون بالإعفاء من ضرائب الأرض . أما النبلاء فلأنهم اشتركوا فى الحرب على نفقتهم الخاصة ، وأما رجال الاكليروس فلأنهم نظموا العبادة والأخلاق والتعليم والبر .

وكانت الجامعات فى كوبنهاجن وأبسالا بالطبع فى أيدى رجال الكنيسة ، وكانت الكنيسة تتقاضى سنوياً عشر كل ناتج أو دخل يُحصَّل خارج مجال الكنيسة ، وتقاضت رسماً صغيراً على كل بناء يقام وكل طفل يولد وكل اثنين يتزوجان وكل جثة تدفن ، وطالبت بالتبرع بيوم عمل فى السنة من كل فلاح . ولم يكن فى وسع أحد أن يرث عقاراً ، دون أن يقدم عنه حصة للكنيسة ، باعتبارها محكمة إشهاد للتثبت من صحة الوصايا(٢) . وكان يدافع عن هذه الضرائب بأنها تمول الخدمة الكهنوتية فى الكنيسة ، ولكن الشكاوى ارتفعت بأن الكثير من متحصلات المعاملات التجارية ذهبت لكى يعيش الأساقفة فى أبهة ملكية . وأزعج تجار الدنمرك السيادة الهنزية فى بحرى الشمال والبلطيق ، فتميزوا غيظاً من المنافسة الإضافية للنبلاء ورجال الإكليروس ، الذين كانوا يصدرون فائض إنتاج ضياعهم فى سفنهم الخاصة غالباً . وفى

اسكندیناوة كما فى غيرها من البلاد ، تطلع النبلاء فى شوق إلى أراضى الكنيسة . ولقد حدث هناك ، كما حدث فى كل موضع آخر صراع بين القومية ، وبين الكنيسة التى تسمو على كل قومية ، وأيدت الكنيسة فى كل البلاد الثلاث اتحاد كالمار الاسكندیناوى ، الذى كان كريستيان الأول ملك الدنمرك قد جدده (١٤٥٧) ؛ ولكن حزباً قومياً يتألف من سكان المدن والفلاحين رفض الاعتراف بالاتحاد ، باعتباره فى الحقيقة سيادة دنمركية ، ونادوا بستن ستور الأصغر نائب ملك يحكم أمة مستقلة (١٥١٢) ، ودافع رئيس الأساقفة جوستاف ترول من أبسالا — وكانت وقتذاك عاصمة للسويد — عن الاتحاد ، فأقاله ستن ستور الصغير وأمر البابا ليو العاشر بإعادته إلى وظيفته فرفض ستور ، وحرم ليو تقديم الخدمات الدينية فى السويد وفوض كريستيان الثانى ملك الدنمرك فى غزو السويد ومعاقبة نائب الملك ، وفشلت أول محاولة لكريستيان ، واضطر إلى توقيع هدنة ، ولكنه حمل معه عند العودة إلى كوبنهاجن عدة رهائن كضمان لالتزام السويديين بنصوص الهدنة ، وكان جوستاف فازا أحد هذه الرهائن . وظفر كريستيان فى حملة ثالية بنصر حاسم ، ومات ستور متأثراً بالجروح ، التى أصيب بها فى المعركة . وأعدت أرملته على عجل جيشاً احتفظ باستكهلم لمدة خمسة شهور أمام حصار دنمركى ، وأخيراً سلمت مقابل وعد قدمه قائد كريستيان بالحصول على عفو عام ، وفى ٤ نوفمبر توج كريستيان ملكاً على السويد على يد ترول الظافر الذى أعيد إلى وظيفته .

وفى السابع من نوفمبر استدعى كبار السويديين الذين أيدا ستور للمثول أمام الملك فى قلعة استوكهلم . واتهمهم ممثل لترول بارتكاب جرائم عظمى بخلعهم كبير الأساقفة وتدمير قلعته ، وطالب الملك بالانتقام منهم لهذه الأخطاء ، وعلى الرغم من العفو العام الذى صدر فقد حكم على سبعين من كبار السويديين بالإعدام . وقطعت رءوسهم فى الثامن من نوفمبر فى الميدان

الكبير ، وقبض على آخرين عديدين فى التاسع من نوفمبر وأعدموا ، وأضيف إلى من قتلوا فى هذه المذبحة بعض المشاهدين الذين أعربوا عن تعاطفهم مع المحكوم عليهم ، وصودرت أملاك الموتى لصالح الملك ، وصرخ كل السويديين من الرعب ، وقال الناس إن اتحاد كالمار أغرق فى « حمام الدم باستوكهلم » وانحطت مكانة الكنيسة كثيراً فى نظر الجماهير لأنها بدأت المذبحة . وقد رأى كريستيان أن يجعل حكمه آمنا بالقضاء على عقول الحزب القومى . والحق أنه مهد طريق العرش للرهينة الشاب الذى قدر له أن يحرر السويد .

واسمه جوستافوس أركسون ، ولكن ذريته أطلقوا عليه اسم فازا ، وهو مشتق من كلمة vasa السويدية و fascis باللاتينية ومعناها حزمة من العصى ظهرت فى شعار أسرته . وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره أرسل ليدرس فى أبسالا ، وعندما بلغ العشرين من عمره استدعى لبلاط ستور الصغير الذى تزوج أختاً غير شقيقة لجوستافوس من أمه ، وهناك تلقى مزيداً من التعليم على يد رئيس الوزراء ، الأسقف هينج جاد ، وفى عام ١٥١٩ فر من المراقبة فى الدنمرك واتخذ طريقه إلى لوبك ، وأقنع أعضاء مجلس الشيوخ فيها (وكانوا فى عداء دائم للدنمرك) ، أن يقرضوه مالا ويعيروه سفينة ، وعاد إلى شواطىء بلاده (٣١ مايو سنة ١٥٢٠) ، وأخذ يضرب على غير هدى وهو متنكر أربعة شهور أو كان يختبىء فى قرى مغمورة . وفى نوفمبر وصلت الأنباء إليه بأن ما يقرب من مائة من الوطنيين المخلصين ، ومنهم أبوه ، قتلوا فى استوكهلم ، فامتطى صهوة أسرع جواد استطاع العثور عليه ، وركب شمالا إلى موطنه مقاطعة داليكارليا ، وصمم على أن ينظم هناك من ملاك الأراضى الجسورين طلائع جيش يمكن أن يحرر السويديين من الدنمركيين .

وكانت حياته وقتذاك ملحمة جديرة بأن يتغنى بها هوميروس . فقد مضى

يسير فى طرقات ثلجية ، والتمس الراحة فى بيت زميل سابق له فى المدرسة ؛ وقدم له هذا الصديق واجبات الضيافة ثم انطلق ليخطر الشرطة الموالية للدنمركيين أن الرهينة الهاربة يمكن القبض عليها وقتذاك ؛ غير أن الزوجة أنذرته جوستافوس ليلوذ بالفرار . وبعد أن قطع راكباً عشرين ميلا وجد ملجأ لدى قسيس أخفاه أسبوعاً . وسافر بعد ذلك ثلاثين ميلا وحاول أن يحرص مدينة راتفيك على الثورة بيد أن أهلها لم يكونوا قد سمعوا بعد بقصة حمام الدم ولم يصدقوها . فركب فازا وسار فى مروج متجمدة خمسة وعشرين ميلا شمالا إلى مورا ، وتوسل مرة أخرى للفلاحين أن يقوموا بثورة ، بيد أنهم أصغوا إليه متشككين فى تبلد . ووجد نفسه منبوذاً وتملكه اليأس لحظة ، فاستدار بفرسه نحو الغرب ، وتخلى عن البحث عن ملجأ فى النرويج . وقبل أن يصل إلى الحدود أدركه رسول من مورا ، ورجاه أن يعود ، وتعهد له بأنه سوف يجد وقتذاك أذناً صاغية بروح تفيض حماسة مثل روحه . فقد سمع الفلاحون أخيراً بأنباء الرعب فى استوكهلم ، وعلاوة على هذا انتشرت شائعة بأن الملك كان يفكر فى القيام برحلة يخترق فيها السويد ، وأنه أمر بإقامة المشانق فى كل مدينة كبرى . وتقرر فرض مكوس جديدة على شعب كان يكافح من أجل الحياة أمام جشع السادة واستبداد المبادئ الأساسية . وعندما خاطب جوستافوس المواطنين فى مورا مرة أخرى أعطوه حرساً مكوناً من ستة عشر من سكان المناطق الجبلية ، وأقسموا أن يسلحوا أنفسهم ، وينظموا صفوفهم ، ويسيروا وراءه حيثما يقودهم لمقاتلة الدنمركيين

ولم يعرفوا وقتها سوى الأقواس والسهام وفئوس الحرب ، وعلمهم فازا كيف يصنعون الرماح والحراب برءوس من الحديد : ودربهم بكل حمية يطويها بين جوانحه شاب يحفزه حب الوطن والساطة ، وبهذه الحماسة استولوا على فستيريس ثم أبسالا ، وفركبير الأساقفة ترول مرة أخرى ، وكسب الجيش النامى فى صبر وتصميم مقاطعة إثر أخرى من الحاميات الدنمركية . .

ولم يستطع كريستيان الثانى الحضور ليتولى بنفسه قيادة قواته. لأنه واجه فى بلده ذاتها حرباً أهلية إلا أن أسطوله أغار مراراً على الشواطئ السويدية . وبعث جوستافوس برسل إلى لوبك لكى يطلبوا سفناً حربية . وجهزت المدينة التجارية عشرة سفن صرفت نشاط الأسطول الدنمركى ، وذلك مقابل وعد بالحصول على مبلغ كبير . وفى السابع من يونيه سنة ١٥٢٣ نادى الثوار المنتصرون ، فى وكسراد جديدة بقائدهم ملكاً باسم جوستافوس الأول ، وفى العشرين من يونيه استسلمت ستوكهلم واتخذ فازا منها بعد ذلك عاصمة له . وفى غضون ذلك كان كريستيان الثانى قد خلع عن عرشه فى الدنمرك ، وتخلى خلفه فريدريك الأول عن كل المطالب الدنمركية فى السيادة على السويد ، وانتهى اتحاد كالمار (١٣٩٧ — ١٥٢٣) وبدأت أسرة فازا .

٢ ـ الإصلاح الدينى السويدى

كان جوستافوس لا يزال شاباً فى السابعة والعشرين من عمره . ولم يكن فارع الطول ، كما نعهد فى الرجال من أهل الشمال ، ولكنه كان يتمتع بقوة بدنية مثل أى قرصان أسكنديناوى ، وكان وجهه المستدير متوردا بحمرة الصحة ، ولحيته الصفراء الطويلة تضفى عليه وقار الملك أكثر من دلالتها على سنه ، وكانت أخلاقه رائعة بالنسبة إلى ملك ، بل إن الكنيسة التى قدر له أن يلبذها بعد ذلك بوقت قصير لم تستطع أن تجادل فى تقواه . ووقف نفسه على القيام بأعباء الحكم بنشاط لا يعرف الأناة ، جعله ينزلق أحياناً إلى التوسل بالعنف أو الاستبداد ، بيد أن ظروف السويد عند ارتقائه العرش كانت تبرر أو تكاد طبعه وحكمه المطلق . وقد ترك آلاف الفلاحين ، فى غمرة فوضى الحرب ، حقولهم دون أن يزرعوها ، وهجر عمال التعدين مناجمهم ، ودمر الصراع المدن ، وخفضت قيمة العملة وأفلست الخزانة العامة ، وأزهقت أرواح أصحاب

العقول المدبرة فى البلاد فى « حمام الدم » ، واعتبر البارونات الإقطاعيون الباقون على قيد الحياة جوستافوس حديث النعمة ، ونظروا باحتقار إلى ادعائه الحق فى الحكم ، ودبرت المؤامرات لخلعه فقضى عليها بيد من حديد ، وكانت فنلنده ، التى كانت جزءاً من السويد ، لا تزال فى أيدى الدتمركيين ، وكان سورن نوربى أمير البحر الدنمركى يحتفظ بجزيرة جوتلاند الاستراتيجية ، وضجت لوبك مطالبة بسداد قروضها .

وكانت أول حاجة ملحة استشعرتها الحكومة مال يدفع للقوات المسلحة التى تحميها ، ثم للموظفين الذين يقومون على شئونها ، أو وعد بدفع هذا المال ، ولكن الضرائب فى السويد أيام فازا كانت تكاد تكلف فى جبايتها أكثر من المتحصل منها لأن الذين كان فى وسعهم وحدهم أن يدفعوها كانوا أقوياء جداً إلى الحد الذى يقاومون فيه جبايتها . وخضع جوستافوس لما اقتضته الحاجة الملحة من تخفيض قيمة العملة مرة أخرى ، بيد أن العملات الرديئة سرعان ما هبطت إلى قيمتها الفعلية ، وكانت إيرادات الدولة أسوأ مما كانت عليه من قبل ، ولم تكن فى السويد إلا جماعة واحدة غنية — هى طبقة رجال الإكليروس ، فتحول جوستافوس إليهم ، وطلب منهم المساعدة ، واعتقد أن من العدل أن تخفف ثروة الكنيسة وطأة الفقر الذى يرزح تحته الشعب والحكومة ، وكتب عام ١٥٢٣ رسالة إلى الأسقف هانز براسك من لنكوبنج ، يطلب فيها هبة قدرها ٥٠٠ر٠٠ جيلدر للدولة ؛ فاحتج الأسقف ثم أذعن . وأرسل فازا طلبا عاجلا إلى كنائس السويد وأديارها بضرورة تسليم كل الأموال والمعادن الثمينة ، التى ليست ضرورية لمواصلة خدماتها ، إلى الحكومة بصفة قرض ، ونشر قائمة بالمبالغ التى يتوقع الحصول عليها من كل مصدر ، ولم تكن الاستجابة إليه كما توقع ، وبدأ يتساءل : ما إذا كانت الحكمة تقتضى منه أن يفعل كما كان يفعل الأمراء اللوثريون فى ألمانيا — فيصادر ثروة الكنيسة تلبية لحاجته

الدولة : ولم ينس أن أغلب كبار رجال الإكليروس قد عارضوا الثورة ، وأنهم عضدوا حكم كريستيان الثانى فى السويد .

وفى عام ١٥١٩ عاد أولاوس بترى ، وهو ابن صاحب مصنع حديد سويدى بعد أن قضى بضع سنوات فى الدراسة بفيتنبرج ، وسمح لنفسه ببعض الهرطقات ، وهو شماس فى المدرسة الكاتدرائية فى سترانجنارس وقال إن المطهر أسطورة ، وإن الصلوات يجب أن يخاطب بها الله وحده وإن الاعتراف يوجه إليه تعالى وحده ، وإن الدعوة إلى ما ورد فى الإنجيل خير من شعيرة القداس . وبدأ الناس يتداولون رسائل لوثر فى السويد . فألح براسك على فازا أن يمنع بيعها ، فأجاب الملك بأن تعاليم لوثر عرضت على قضاة عدول فلم يجدوا فيها زيفا[٣] » . ولعله رأى أن من حسن السياسة الاحتفاظ على سبيل الاحتياط بهرطيق يساوم الكنيسة عليه .

وأصحت الأمور أشد إثارة عندما رفض البابا أدريان السادس أن يصادق على تعيين قاصده الرسولى جوهانس ماجنوس رئيساً لأساقفة أبسالا ، واقترح إعادة جوستاف ترول عدو الثورة . فأرسل فازا إلى مجلس شورى الفاتيكان رسالة كانت حرية وقتذاك (١٥٢٣) بأن تفزع هنرى الثامن وتسعده فيما بعد :

إذا كان عند أبينا المقدس أى اهتمام بسلام بلدنا فإنه يسرنا أن نراه يصادق على اختيار قاصده الرسولى ... وسوف نستجيب لرغبات البابا فيما يختص بإصلاح الكنيسة والدين . ولكن إذا أيد قداسته أنصار كبير الأساقفة ترول الموصومين بالجريمة ، مخالفاً بذلك كرامتنا وسلامة رعايانا ، فإننا سوف نسمح لقاصده الرسولى بالعودة إلى روما ، وسوف ندبر أمور الكنيسة فى هذه البلاد بمقتضى السلطة المخولة لنا باعتبارنا ملكاً .

وأدت وفاة أدريان وانصراف كليمنت السابع بجهوده لمقاومة لوثر وشارل الخامس وفرانسيس الأول ، إلى ترك فازا حراً فى المضى قدماً بالإصلاح

الدينى السويدى ، فعين أولاوس بترى فى كنيسة سانت نيكولاس فى استكهلم ، وعين لورانتيوس شتميق أولاس أستاذا للاهوت فى جامعة أبسالا ، ورفع مصلحا دينيا ثالثا وهو لورانتيوس أندريا إلى رتبة رئيس شمامسة الكاتدرائية . ودافع أولاوس بترى عن اللوثرية فى مناظرة دارت بينه وبين بيترجال (٢٧ ديسمبر سنة ١٥٢٤) فى مقر الأسقفية بالكاتدرائية ، برئاسة الملك وقضى فائزا بفوز أولاوس ، ولم ينزعج عندما اتخذ أولاس زوجة له (١٥٢٥) ، قبل زواج لوثر بأربعة شهور ، ومهما يكن من أمر فإن الأسقف براسك فزع بسبب هذه المخالفة لرهبانية رجال الأكليروس ، وطلب من الملك أن يقضى على بترى بالحرمان . فأجاب جوستافوس بأن أولاوس يجب أن يعاقب إذا كان قد ارتكب خطأ ، ولكن « يخيل إلى أن من العجب أن يعاقب المرء بسبب الزواج (وهو شعيرة لا يحرمها الله) ، ولا يقع المرء تحت طائلة الحرمان بسبب الفسوق وغيره من الآثام(٤) » وبدلا من أن يحكم على بترى بأنه خالف القانون انتدبه هو وشقيقه لترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة السويدية . وساعدت النسخة المترجمة إلى اللغة الدارجة ، كما حدث فى كثير من البلاد الأخرى ، على تكوين اللغة القومية وتحرير الدين القومى .

وعد جوستافوس ، مثل معظم الحكام ، أى إجراء يقوم به لتدعيم مركز بلاده أو عرشه مسايراً للأخلاق . وحرص على ترقية الآساقفة الذين يذعنون لخططه إلى مرتبة المطرانيات السويدية ووجد أسباباً لا يستطيع دفعها لنزع ملكية أراضى الأديار ، ولما كان قد تقاسم الأسلاب مع النبلاء فإنه فسر ذلك بأنه إنما كان يعيد إلى العلمانيين ما أغرى أجدادهم على أن يهبوه للكنيسة ، وشكا البابا كليمنت السابع من أن القساوسة السويديين كانوا يتزوجون ، ويقدمون القربان بالخبز والنبيذ ، ويهملون شعيرة المسح الأخير ويغيرون شعيرة القداس وبعث بنداء للملك بأن يظل مخلصاً للكنيسة ولكن جوستافوس كان قد قطع شوطاً بعيداً فلم يستطع أن يتراجع ، وكانت

العقيدة المحافظة حرية بأن تخرب خزائنه . ونادى فى مجلس فستيريس (١٥٢٧) بالإصلاح الدينى علنا .

كان اجتماعا تاريخياً فى تكوينه ونتائجه معا . فقد اجتمع أربعة أساقفة وأربعة من كبار القساوسة وخمسة عشر عضوا من الركسراد Riksraad و١٢٩ نبيلا واثنان وثلاثون من أوساط الناس وأربعة عشر نائبا لعمال المناجم و١٠٤ ممثلا للفلاحين ، وكان هذا مجلساً وطنياً يمثل أعرض قاعدة بين المجالس فى القرن السادس عشر . وطرح كبير وزراء الملك اقتراحاً ثورياً أمام المجلس ، فقال إن الدولة قد افتقرت إلى المال إلى حد عجزها عن القيام بتبعاتها نحو الشعب ، وأن الكنيسة كانت غنية جداً إلى الحد الذى يسمح لها بأن تحول جانباً كبيراً من ثروتها إلى الحكومة ، ويبقى لها مع ذلك ما يكفى لأن تقوم بجميع التزاماتها . وحارب الأسقف براسك لآخر لحظة من أجل مثله العليا وأملاكه العقارية ، فأعلن أن البابا قد أمر رجال الأكليروس بالدفاع عن أملاكهم . وصوت المجلس فى صف القائلين بإطاعة البابا . ورأى جوستافوس أن يقامر على كل شىء برمية واحدة ، فأعلن أنه إذا كان هذا حكم المجلس والأمة فإنه سيستقيل ويرحل عن السويد ، وظل المجلس فى نقاش مستمر طوال ثلاثة أيام . ووقف الأوساط ورجال الفلاحين إلى جانب الملك ، وكان لدى النبلاء سبب وجيه للتحرك فى الاتجاه نفسه ، واقتنع المجلس آخر الأمر بأن فازا أعظم قيمة للسويد من أى بابا ، فوافق على رغبات الملك . وتحولت الأديار فى فترة العطلة أو فى ختام مجلس فستيريس إلى إقطاعيات للملك ، وإن سمح للرهبان بالإفادة منها ، وتقرر إعادة كل الأملاك التى منحها النبلاء للكنيسة منذ عام ١٤٥٤ إلى ورثة الواهبين ، وأن يسلم الأساقفة قصورهم إلى التاج ، وحرم على الأساقفة أن يسعوا إلى الحصول على تأييد البابا لتعيينهم ، وتقرر أن يسلم رجال الإكليروس إلى الدولة كل دخل ليست شعائرهم الدينية فى حاجة إليه ، ووضع حد للاعتراف السرى ، وتقرر أن تعتمد العظات كلها على الكتاب المقدس وحده . وكان الإصلاح الدينى فى السويد ، بصورة قاطعة أكثر منه فى أى مكان آخر ، تأميما للدين وانتصاراً للدولة على للكنيسة .

وعاش فازا بعد هذه الأزمة ثلاثا وثلاثين عاماً ، وظل حتى النهاية حاكماً مطلقاً . . . قوياً ولكنه يعمل لخير شعبه ، وكان مقتنعاً بأن السلطة المركزية وحدها هى التى تستطيع أن تعيد النظام والرخاء إلى السويد ، وأنه فى مهمة معقدة كهذه لا يستطيع أن يتوقف عند كل خطوة ليستشير مجلساً مترويا ، وبفضل تشجيعه وتنظيمه صبت مناجم الشمال حديدها فى أدوات الحرب السويدية ، واتسعت رقعة الصناعة ، وأبرمت معاهدات تجارية مع إنجلترا وفرنسا والدنمرك وروسيا أوجدت أسواقاً للسلع السويدية ، وجلبت إلى السويد منتجات من اثنى عشرة بلداً ، وأضفت تهذيباً جديداً وثقة على حضارة كانت قبله معتقلة فى سذاجة ريفية وأمية . وازدهرت السويد وقتذاك كما لم تزدهر من قبل .

واشتبك جوستافوس فى عدة حروب ، وقمع أربع ثورات وعقد قرانه على ثلاث زوجات على التعاقب ، وأنجبت له الأولى ولداً أصبح فيما بعد اريك الرابع عشر ، وأنجبت له الثانية خمسة أولاد وخمس بنات أما الثالثة التى كانت فى السادسة عشرة من عمرها عند ما تزوجها وهو فى السادسة والخمسين فقد عمرت بعده ستين عاماً ، وأغرى الرجسراد Rigsraad بأن يقبل أبناءه ورثة للعرش وأن يجعل وراثة العرش مقصورة على الذكور كقاعدة تتبع فى الملكية السويدية .

وصفحت السويد عن حكمه المطلق لأنها أدركت أن النظام أصل الحرية وليس ثمرة لها . وعندما مات (٢٩ سبتمبر سنة ١٥٦٠ ، بعد حكم دام سبعة وثلاثين عاماً دفن فى كاتدرائية أبسالا فى احتفال صدر عنه بالحب وتميز بالسرف وهو لم يمنح شعبه الحرية الشخصية التى كانوا يستحقونها بصفة خاصة فيما يبدو ، ولكنه منحهم حرية جماعية من السيطرة الأجنبية فى الدين أو الحكم ، وقد هيأ الظروف التى استطاعت أمته فى ظلها أن تصل إلى درجة

النضج فى مجالات الاقتصاد والأدب والفن . كان الأب الحقيقى للسويد الحديثة .

٣ – الإصلاح الدينى الدنمركى

كان كريستيان الثانى ملك الدنمرك (حكم ١٥١٣ – ٢٣) شخصية لامعة مثل جوستافوس فازا الذى هزمه فى السويد . وقد أكرهه البارونات على التوقيع على شروط استسلام مهينة ثمناً لانتخابه ، فأحاط نفسه بمستشارين من الطبقة المتوسطة وتجاهل الريجسراد Rigsraad (مجلس الثواب) الدنمركى ، المكون من الأعيان من ذوى النسب ، وعين أم عشيقته الهولندية الجميلة كبيرة لمستشاريه ولا بد أن هذا المجلس الخاص كان يتمتع بشىء من المقدرة والروح ، لأن سياسة كريستيان الوطنية كانت بناءة بقدر ما كانت مغامراته الأجنبية فاشلة لا طائل تحتها ، وعمل جاهداً فى تدبير الملك ، وأصلح حكم المدن ، وراجع القوانين ، وقضى على القرصنة ، ومهد الطرق ، وشرع فى إقامة نظام بريدى عام ، وألغى أسوأ آفات الرق ، وأبطل عقوبة الإعدام على ممارسة السحر ، ونظم الإعانة للمحتاجين ، وفتح المدارس للفقراء ، وجعل التعليم إجبارياً ، وطور جامعة كوبنهاجن ، فأصبحت مكاناً يشع بالضياء وملاذا للعلم . وتعرض لعداء لوبك بتقييد سلطة الهانز Hanse ، وشجع التجارة الدنمركية وأسبغ عليها حمايته ، ووضع حداً للعادة الهمجية التى خولت للقرويين المقيمين بجوار البحر الحق فى نهب كل السفن التى تتحطم على شواطئهم .

وأرسل ليو العاشر عام ١٥١٧ جيوفانى أركمبولدو إلى الدنمرك ليعرض صكوك غفران ، فندد بول هلجزن ، وهو راهب كرملى بما بدا له بيعاً لصكوك الغفران هذه ، وهو بذلك سبق رسائل لوثر(٥) . واشتجر النزاع بين القاصد الرسولى وبين الملك حول تقسيم هذه المبالغ المتحصلة من البيع . وهرب أركمبولدو إلى لوبك بجانب منها ، وصادر كريستيان الباقى ، وعندما

وجد كريستيان أسباباً وجيهة لاعتناق البروتستانتية دفعاً للمظالم الحقيقية التى ارتكبتها الكنيسة وثروتها القائمة ، عين هلجزن فى منصب بجامعة كوبنهاجن ، حيث تزعم إرازموس الدنمرك الفصيح هذا ، إلى حين ، حركة للإصلاح الدينى . وعندما تحول هلجزن إلى رجل يأخذ بأسباب الحيطة أرسل كريستيان إلى فردريك الحكيم الأمير المختار لسكسونيا ، كى يبعث إليه بلوثر نفسه ، أو يبعث إليه على الأقل بعالم فى اللاهوت من مدرسة لوثر . وجاء كاراشتادت ، ولكنه لم يمكث طويلا . وأصدر كريستيان قانوناً بالإصلاح الدينى : لا يجوز رسامة أحد دون أن يكون قد درس دراسة كافية ليفسر الإنجيل باللغة الدنمركية ، ولا يستطيع رجال الاكليروس قانوناً أن يملكوا عقاراً ، أو يتسلموا تركات ما لم يتزوجوا ، وأمر الأساقفة بأن يتخففوا من الترف الذى يعيشون فيه ، وفقدت المحاكم الكنيسة الاختصاص القضائى ، عندما يتعلق الأمر بنظر قضية خاصة بالملكية ، وخولت محكمة عليا ، عينها الملك ، السلطة النهائية فى الشئون الكنسية والمدنية على السواء : ومهما يكن من أمر فإنه عندما وضع مجلس دايت ورمس لوثر تحت نير الحرمان الإمبراطورى ، أوقف كريستيان إصلاحاته وأشار هلجزن بعقد صلح مع الكنيسة .

وبينما كانت هذه السياسة الوطنية التى انتهجها كريستيان تثير شعبه ، فقد أزمة الموقف بفشله فى الشئون الخارجية . وأدت قسوته فى السويد إلى أن ينقلب عليه كثير من الدنمركيين . وأعلنت لوبك الحرب عليه بسبب هجماته على السفن الهانزية ، وتجاهل النبلاء ورجال الإكليروس ، الذين نفرتهم منه الضرائب المرتفعة والتشريع المعادى ، دعواته لعقد مجلس وطنى ، ونادوا بعمه الدوق فريدريك أف شلسفيج — هولشتين ، ملكاً جديداً للدنمرك ، وفر كريستيان إلى الفلاندرز مع الملكة زوجته ، شقيقة شارل الخامس البروتستانتية ، وعقد صلحاً مع الكنيسة ، مؤملا أن يجد مملكة لقداس ؛

وقبض عليه وهو يقوم بمحاولة ، لا طائل تحتها ، لاستعادة عرشه ، وعاش سبعة وعشرين عاماً فى سجون سوندربورج ، لا رفيق له إلا قزم نرويجى أحمق . وقادته سبل المجد إلى رمسه ، يجلله الخزى والعار رويداً (١٥٥٩) .

ولم يجد فردريك الأول ما كان ينشده من سعادة فى ظل تاجه المهدد ، فقد رضى به النبلاء ورجال الأكليروس بشروط كثيرة ، أحدها أنه لن يسمح أبداً لهرطيق بالوعظ الدنمرك ، وبينما كان هلجزن يواصل نقده لنقائص الكنيسة ، حول وقتذاك معظم مناظراته ، التى تشتعل حماسة ، ضد البروتستانت ، وألح على أن إصلاحاً دينياً ، يتم بالتدريج ، خير من ثورة يسودها الشغب . ولكنه لم يستطع أن يقف فى وجه التيار ، فقد كان الدوق كريستيان ، ابن فردريك ، لوثريا قبل ذلك ، وتزوجت ابنة الملك ، بموافقته ، ألبرخت البراندنبرجى الرئيس اللوثرى السابق للفرسان النيوتون ، وفى عام ١٥٢٦ مال فردريك مع الريح ، وعين هانزتاوزن قساً خاصاً له ، وكان قد درس على يد لوثر ، فترك تاوزن ديره ، وتزوج ودافع علنا عن آراء لوثر ، ووجد فردريك أن من المناسب أن يأمر بأن تدفع له لا للبابا ، رسوم التصديق على تعيين الأساقفة . وتشجع الوعاظ اللوثريون وتضاعف عددهم ، وطلب الأساقفة نفيهم ، فرد عليهم فردريك بأنه لا ولاية له على أرواح الناس ، وأنه قرر أن يترك العقيدة حرة — وهو إجراء غير مألوف للغاية ، وظهرت عام ١٥٢٤ ترجمة للعهد الجديد باللغة الدنمركية ، ونشر كريستيان بدرسن عام ١٥٢٩ نسخة أفضل من الأولى ، دفعت الحركة البروتستانتية دفعة كبيرة . وكان الناس يتلهفون على وضع حد لضرائب العشور التى تدفع لرجال الأكليروس ، فقبلوا اللاهوت الجديد ، وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كان اللوثريون يسيطرون على كوبنهاجن وفيبورج . وفى ذلك العام عقدت مناظرة فى المجلس بكوبنهاجن ، بين زعماء الكاثوليك والبروتستانت ، وقضى الملك والشعب بفوز البروتستانت ، وظل الاعتراف

بالعقيدة الذى قدمه هناك هانز تاوزن مدى عقد من الزمان ، المذهب الرسمى للوثريين الدنمركيين .

وكانت وفاة فردريك (١٥٣٣) مقدمة للفصل الأخير من الإصلاح الدينى الدنمركى . فقد انضم كبار التجار فى الدنمرك إلى أعدائهم القدامى فى لوبك ، وقاموا بمحاولة لإعادة كريستيان إلى العرش ، وقاد الكونت كريستوفر ا ف أولدنبرج قوات لوبك وأطلق اسمه على هذه الحرب فسميت باسم « حرب الكونت ، وسقطت كوبنهاجن فى يده ، وأخذت لوبك تحلم بحكم الدنمرك بأسرها . بيد أن أوساط الناس والفلاحين نظموا صفوفهم تحت علم كريستيان ابن فردريك ، وتغلب جيشهم على أولدنبرج ، واستولى على كوبنهاجن بعد حصار ضربه حولها دام عاماً (يوليو سنة ١٥٣٦) . وقبض على جميع الأساقفة ، ولم يطلق سراحهم ، إلا بعد أن وعدوا بالبقاء إلى جانب النظام البروتستانتى وانعقد المجلس الوطنى فى أكتوبر سنة ١٥٣٦ ، وأنشأ رسميا كنيسة الدولة اللوثرية ، ورئيسها الأعلى كريستيان الثالث . وصودرت جميع أملاك الأسقفيات والأديار لصالح الملك ، وفقد الأساقفة كل صوت لهم فى الحكم . وقبلت النرويج وأيسلندة كريستيان الثالث وتشريعه ، وكتب النصر التام للوثرية فى اسكنديناوة (١٥٥٤) .

٤ — البروتستانتية فى شرقى أوروبا

نعمت بولندة بعصرها الذهبى فى عهد سجسموند الأول (١٥٠٦ — ٤٨) وابنه سجسموند الثانى (١٥٤٨ — ٧٢) . وكانا رجلين على حظ من الثقافة والذكاء ، وراعيين متذوقين للأدب والفن ، وكلاهما منح للفكر الدينى والعبادة حرية ، وعلى الرغم من أنها لم تكن كاملة ، فإنها جعلت معظم أمم أوروبا تبدو قروسطية إذا قورنت ببولندة . وتزوج سجسموند الأول بونا سفورزا المرحة الموهوبة (١٥١٨) ، وهى ابنة الدوق جيانجاليازو أمير

ميلان ، وأحضرت معها إلى كراكو بطانة من رجال الحاشية والعلماء ، وبدلا من أن يتبرم بهم الملك ، رحب بهم باعتبارهم جسراً يصل بينه وبين النهضة ، وتملكت الأرستقراطية نزعة إلى الترف بارتداء الثياب المنمقة واقتناء الرياش الثمينة ، وأصبحت اللغة أكثر صقلا ، والأخلاق أكثر تهذيباً ، وازدهرت الآداب والفنون ، وكتب إرازموس (عام ١٥٢٣) : « إنى أهنىء هذه الأمة . . . التى بلغت فيها العلوم وفقه القانون والأخلاق والدين وكل ما يفصلنا عن الهمجية درجة من الازدهار تستطيع بها أن تنافس أرفع الأمم شأناً وأعظمها مجداً[٦] » . وسيطرت بونا على زوجها بجمالها ورشاقتها ودهائها ، فأصبحت ملكة فعلا ، وملكة فى الزى على السواء ، وكان ابنها سجسموند الثانى عالما بالإنسانيات ولغويا وخطيبا وميالا إلى التزيى بزى النساء[٧] . وأضرت الحروب هذه العهود اللامعة لأن بولندة كانت مشتبكة مع السويد والدنمرك وروسيا فى نزاع على السيطرة على بحر البلطيق وموانيه ، وفقدت بولندة بروسيا ، بيد أنها ضمت مازوفيا وتشمل وارسو (١٥٢٩) وليفونيا وتضم ريجا (١٥٦١) . وكانت بولندة فى هذا العصر دولة أوروبية كبرى .

وفى غضون ذلك تسلل الإصلاح الدينى من ألمانيا وسويسرة . وقد عودت حرية العبادة ، التى ضمنها التاج البولندى لرعاياه من الروم الكاثوليك ، الأمة على التسامح الدينى ، وجعلت ثورة الهسيين والأتراكويين فى بوهيميا المجاورة . والتى دامت قرناً من الزمان ، بولندة لا تعبأ إلى حد ما بالسلطة البابوية البعيدة . وكان الأساقفة ، الذين يعينهم الملوك ، رجالا مثقفين محبين لوطنهم ، من أنصار الإصلاح الكنسى ، مع الاعتصام بحيطة إرازمية ، ويؤيدون الحركة الإنسانية تأييداً عظيما ، ومهما يكن من أمر فإن هذا لم يخفف من شدة الحسد الذى تطلع به النبلاء ، وسكان المدن ، إلى أملاكهم ومواردهم . وازدادت الشكاوى من استنزاف الثورة

القومية إلى روما ، ومن صكوك الغفران التى تكلف مشتريها غالياً بصورة غير معقولة ، ومن اتجار رجال الدين بالمقدسات والرتب والوظائف الدينية ، ومن ارتفاع نفقات التقاضى أمام المحاكم الأسقفية . واستاء صغار النبلاء الزلاختة Szlachka بصفة خاصة من إعفاء رجال الأكليروس من الضرائب ومن جباية رجال الأكليروس لضرائب العشور من النبلاء أنفسهم . ولعل بعض البارونات من ذوى النفوذ قد استمعوا فى تعاطف إلى نقد لوثر للكنيسة ، لأسباب اقتصادية ، وكان لما يتمتع به اللوردات الإقطاعيون من شبه سيادة الفضل فى إسباغ الحماية على الحركات البروتستانتية المحلية ، كما كان لاستقلال الأمراء الألمان الفضل فى إمكان نشوب الثورة وحماية لوثر . ودافع راهب دانزج على رسائل لوثر ودعا إلى القيام بإصلاحات كنسية ، وتزوج وارثة (١٥١٨) ؛ وانتهج واعظ آخر نهج لوثر فعلا إلى حد أن عدة جماعات للمصلين أزالت كل الصور الدينية من كنائسها (١٥٢٢) وأحل مجلس المدينة الرهبان والراهبات من أقسامهم وأغلق الأديار (١٥٢٢) ، وما أن حل عام ١٥٤٠ حتى كانت كل منابر الوعظ فى دانزج فى أيدى البروتستانت . وعندما قدم بعض رجال الإكليروس فى براونزبرج البولندية البروسية الشعيرة اللوثرية وشكا كبراء القساوسة فى الكاتدرائية إلى أسقفهم ، رد بأن « لوثر بنى آراءه على الكتاب المقدس وكل من يشعر بأن فى مقدوره أن يدحضها فليضطلع بالعبء (١٥١٠)[٨] . وأقنع سجسموند الأول بفرض رقابة على المطبوعات ، ومنع دخول كتابات لوثر ، غير أن كاتم سره وكاهن الاعتراف الفرنسسكانى الخاص ببونا اعتنقا العقيدة المحرمة سراً وكسبتهما إلى صفها ، وأهدى كالفن عام ١٥٣٩ كتابه « تعليق على القداس » لولى العهد .

وعندما أصبح الأمير ملكاً باسم سجسموند الثانى انتشرت اللوثرية والكالفينية على السواء بسرعة . وترجم الكتاب المقدس إلى اللغة البولندية ، وبدأت اللغة الدارجة تحل محل اللغة اللاتينية فى الشعائر الدينية . وأعلن

القساوسة المبرزون مثل جان لاسكى تحولهم إلى البروتستانتية ؛ وفى عام ١٥٤٨ انتقل الإخوة البوهيميون من بلادهم إلى بولندة ، وسرعان ما كانت هناك ثلاثون جمعية سرية من طائفتهم فى البلاد . وقام رجال الأكليروس الكاثوليك بمحاولة لاتهام بعض أفراد صغار النبلاء Szlachta بالهرطقة ومصادرة أملاكهم ، فأدت إلى قيام كثير من صغار النبلاء بالثورة ضد الكنيسة (١٥٥٢) وصوت المجلس النيابى الوطنى لعام ١٥٥٥ ، وأقر الحرية الدينية لكل العقائد التى تعتمد على « كلمة الله الخالصة » ، وأسبغ صفة الشرعية على زواج رجال الأكليروس ، ومناولة القربان المقدس بالخبز والنبيذ ، وكان الإصلاح الدينى فى بولندة فى أوج ازدهاره .

وتعقد الموقف فى بولندة بتطور أقوى حركة للقائلين بوحدة الكنيسة ، إبان القرن السادس عشر فى أوروبا ؛ وفى أوائل عام ١٥٤٦ نوقشت محاولات سرفيتوس المنكرة للقول بالتثليث ، وذلك فى هذا الشرق الأقصى من العالم المسيحى اللاتينى ، وزار لايليوس سوكينوس بولنـــدة عام ١٥٥١ وترك خمائر من الأفكار المتطرفة ، وواصل جيورجيو بلاندرانا الحملة ، وفى عام ١٥٦١ أصدرت الجماعة الجديدة اعترافاً بالعقيدة . وواصل أعضاؤها الخلط الذى اتسم به لاهوت سرفيتوس ، فقصروا الألوهية الكاملة على الرب الأب ، ولكنهم جاهروا بالإيمان بالمولد الخارق للمسيح ووحيه الإلهى ومعجزاته وبعثه وصعوده . ورفضوا التسليم بفكرتى الخطيئة الأولى وتفكير المسيح عن خطايا البشر ، وسلموا بالتعميد والقربان المقدس كرمزين فحسب ، ولقنوا الناس أن الخلاص يتوقف فوق كل شىء على العمل الواعى بتعاليم المسيح ؛ وعندما أدان المجمع المقدس الكالفينى فى كراكو (١٥٦٣) هـــذه العقائد ، أنشأ القائلون بوحدة الكنيسة لهم كنيسة منفصلة . ولم تبلغ الطائفة أوج ازدهارها إلا على يد فاوستوس

سوكينوس ابن أخى لايليوس ، الذى وصل إلى بولندة عام ١٥٧٩ .

وحاربت الكنيسة الكاثوليكية هذه التطورات بالاضطهاد والكتابات والدبلوماسية ، وفى عام ١٥٣٩ أرسل أسقف كراكو إلى المحرقة امرأة فى الثمانين من عمرها بتهمة أنها رفضت عبادة القربان المقدس(٩) . وتصدى ستانسلاوس هوزيوس ، أسقف كولم فى بروسيا ، والكاردينال فيما بعد ، لتعبئة الهجوم المضاد بمقدرة وحماسة ، وعمل جاهداً من أجل الإصلاح الكنسى ، ولكنه لم يكن متعاطفاً مع اللاهوت البروتستانتى أو الشعيرة البروتستانتية وبناء على اقتراحه أرسل لودوفيكوليبومانو أسقف فيرونا إلى بولندة مندوباً بابوياً ، وعين جيوفانى كومندونى ، أسقف زانتى قاصداً رسولياً فى كراكو . وكسبوا تأييد سجسموند الثانى الفعال للكنيسة بتأكيد الانقسامات بين البروتستانت وتضخيم صعوبة تنظيم الحياة المعنوية للأمة بمثل هذه العقائد الضارة المذبذبة . وفى عام ١٥٦٤ جاء هوزيوس وكمندونى باليسوعيين إلى بولندة . وضمن هؤلاء الرجال المدربون المخلصون مناصب استراتيجية فى النظام التعليمى ، واستمالوا آذان الشخصيات البارزة ، وأعادوا الشعب البولندى إلى اعتناق العقيدة التقليدية .

وكان البوهيميون من البروتستانت قبل لوثر ، ولم يجدوا فى أفكاره ما يفزعهم إلا قليلا ، وقبل جانب كبير من الألمان على الحدود الإصلاح الدينى ، وكان الإخوة البوهيميون ويبلغ عددهم حوالى عشرة فى المائة من مجموع السكان البالغ ٤٠٠ر٠٠٠ نسمة ، أشد تمسكاً بالبروتستانتية من لوثر ، وكان ٦٠ فى المائة أتراكويين كاثوليك تناولوا القربان المقدس بالنبيذ وبالخبز على السواء ، وتجاهلوا احتجاجات البابوات(١٠) . وما أن حل عام ١٥٦٠ حتى كان ثلثا سكان بوهيميا من البروتستانت ، ولكن فرديناند أدخل اليسوعيين عام ١٥٦١ ، وتحول التيار إلى العقيدة للكاثوليكية المحافظة .

وعرفت هنغاريا الإصلاح الدينى عن طريق المهاجرين الألمان وهم يحملون أنباء لوثر ، ذلك الرجل الذى استطاع أن يتحدى الكنيسة والإمبراطورية وعاش مع ذلك ، وتطلع الفلاحون الهنغاريون الذين ظلمهم الإقطاع الذى تساعده الكنيسة ، بشىء من التحيز لبروتستانتية يمكن أن تضع حداً لضرائب العشور والمكوس التى تجبيها الكنيسة ، وتطلع البارونات الإقطاعيون بعيون جشعة إلى أملاك الكنيسة الشاسعة ، التى كانت منتجاتها تنافس منتجات أراضيهم ، ورأى عمال المدن ، الذين أصيبوا بعدوى مبادئ المدينة الفاضلة ، أن الكنيسة هى العقبة الكبرى التى تقف فى طريق أحلامهم ، وانهمكوا فى نشوات تحطيم التماثيل ، وتعاونت الكنيسة فى إقناع الحكومة باعتبار اعتناق البروتستانتية جريمة يستحق مرتكبها الإعدام ، وسعى الملك فرديناند فى غربى هنغاريا جاهداً للحصول على مصالحة ، وأراد أن يسمح لرجال الإكليروس بالزواج وبتقديم القربان المقدس بصورتيه المعروفتين ، وانتشرت البروتستانتية بلا قيود فى شرقى هنغاريا فى ظل حكم تركى ينظر باحتقار وبلا مبالاة إلى الاختلاف بين المذاهب المسيحية ، وما إن حل عام ١٥٥٠ حتى بدا أن هنغاريا بأسرها سوف تصبح بروتستانتية ، ولكن الكالفينية بدأت وقتذاك تنافس اللوثرية فى هنغاريا ، وأيد المجريون ، وهم بفطرتهم مناهضون للألمان ، النمط السويسرى من الإصلاح الدينى ، وما إن جاء عام ١٥٥٨ حتى كان الكالفينيون من الكثرة إلى حد أنهم استطاعوا عقد مجمع مقدس فى زنجر ، كان له أثره الكبير . وشطرت مراكز القوى المتنافسة للإصلاح الدينى الحركة إلى شطرين ، وعاد كثير من الموظفين أو من تحولوا من عقيدتهم ، ممن ينشدون الاستقرار الاجتماعى أو الهدوء الفكرى إلى الكاثوليكية ، وفى القرن السابع عشر استعاد اليسوعيون بزعامة ابن أحد الكالفينيين ، هنغاريا إلى حظيرة الكاثوليكية :

٥ ـ شارل الخامس والأراضى المنخفضة

كانت تجارة نافقة فى بلاد الفلاندرز إبان نضج شارل أفضل من الانصراف إلى صناعة ضعيفة مشتتة . وساد الكساد فى بروجس وغنت ، وعاشت بروكسل باعتبارها قصية فلمنكية ، وكانت لوفان تشكل اللاهوت وتصنع الجعة وأنتورب تتحول ـ وسوف تكون عند حلول عام ١٥٥٠ ـ أغنى مدينة فى أوروبا وأكثرها حركة وعملا . وحولت التجارة الدولية والمال ذلك الميناء الهزيل على نهر شلدت العريض الصالح للملاحة بفضل انخفاض المكوس الجمركية على الواردات والصادرات والارتباط السياسى مع إسبانيا وبورصة متخصصة ، وشعارها يقول إنها أنشئت **ad usum mercatorum cuiusque gentis ac linguae** « ليفيد منها التجار القادمون من كل البلاد والمتحدثون بجميع الألسنة[١١] » . وكان القيام بمشروع أى عمل حراً من قيود الطائفة الحرفية والحماية البلدية ، التى أبقت الصناعة للقروسطية غير متقدمة لحسن الحظ . وفتح المصرفيون الإيطاليون هناك وكالات وأقام « التجار المغامرون » الإنجليز مستودعا وركز آل فوجر وجوه نشاطهم التجارى ، وبنى الهانز مؤسستهم العظيمة بيت الشرقيين (١٥٦٤) . وشهد الميناء ٥٠٠ سفينة تدخل إليها أو تغادرها كل يوم و ٥٫٠٠٠ تاجر يشتغلون بتبادل السلع . وكانت حوالة مالية مسحوبة على أنتورب وقتذاك أشيع شكل للعملة للدولية . وفى هذه الفترة حلت أنتورب بالتدريج محل لشبونة ، وأصبحت أكبر ميناء أوروبى لتجارة التوابل ، وكان للوكلاء الفلمنكيون يشترون حمولات السفن الداخلة إلى لشبونة قبل أن تفرغ ثم ترسل مباشرة إلى أنتورب لتوزيعها فى شمالى أوروبا . وكتب سفير للهندقية يقول : « لقد حزنت لرؤية أنتورب لأنى شهدت مدينة تبز البندقية[١٢] » ، وكان يشهد التحول التاريخى للزعامة التجارية من البحر الأبيض المتوسط إلى شمال الأطلنطى . وحفزت هذه التجارة الصناعة الفلمنكية فانتعشت حتى فى غنت ،

وأمدت الأراضى المنخفضة شـــارل الخامس بمبلغ ٠٠٠ر٠٠٥ر١ جنيه (٠٠٠ر٠٠٥ر٣٧ دولار ؟) سنويا ، وهو يعادل نصف دخله الكلى[١٣] .

واستجاب بمنح الفلاندرز وهولندة حكما صالحا معتدلا ، اللهم إلا فى مجال الحرية الدينية — وهى هبة لم يكد يدركها أصدقاؤه أو أعداؤه . وكانت سلطته من الناحية الدستورية مقيدة بتعهده الذى أقسم على تنفيذه بمراعاة مواثيق المدن والمقاطعات وقوانينها المحلية ، وبالحقوق الشخصية والعائلية ، التى حافظ عليها سكان المدن بشجاعة ، وبمجالس الدو[illegible] ، ومحكمة للاستئناف أنشئت لتكون جزءا من الإدارة المركزية ، وكان شارل بوجه عام يحكم الأراضى المنخفضة حكما غير مباشر عن طريق نواب يقبلهم المواطنون : أولا عمته ، وحاضلته ومربيته مرجريت النمساوية ، ثم شقيقته مارى ، ملكة هنغاريا السابقة ، وهما امرأتان تتمتعان بكفاءة وإنسانية ومهارة . ولكن شارل أصبح أشد استبدادا باتساع رقعة الإمبراطورية وأقام حرسا إسبانيا فى المدن المتكبرة ، وقمع بقسوة أى مخالفة خطيرة لسياسته الدولية ، فعند ما رفضت غنت أن تصوت على قرار بالاعتمادات العسكرية التى طلبها ومنحتها له المدن الأخرى ، أخمد شارل الثورة باستعراض قوة لا جدال فيها ، واقتضى إعانة مالية وتعويضا ، وألغى الحريات التقليدية التى كانت تتمتع بها البلدية ، واستُبْدِل بالحكومة المختارة محليا موظفون معينون من قبل الإمبراطور (١٥٤٠)[١٤] ، ولكن لم يكن هذا المتبع فى الأغلب ، وعلى الرغم من هذه القسوة العارضة فقد ظل شارل يحظى بشعبية بين رعاياه فى الأراضى المنخفضة ونال الثقة لما حققه من استقرار سياسى ونظام اجتماعى ، وطدا دعائم الرخاء الاقتصادى ، وعندما أعلن تنازله عن العرش حزن كل المواطنين تقريبا[١٥] .

وسلم شارل بالنظرية المتداولة القائلة بأن السلام القومى والقوى يتطلبان وحدة المعتقد الدينى ، وخشى أن تؤدى البروتستانتية فى الأراضى المنخفضة

إلى تعريض جناحه للخطر فى نزاعه مع فرنسا وألمانيا اللوثرية، فأيد الكنيسة تأييداً كاملا فى قمع الهرطقة فى الفلاندرز وهولندة ؛ وكانت حركة الإصلاح الدينى هناك معتدلة قبل لوثر ، ودخلت بعد عام ١٥١٧ ، مثل ما دخلت اللوثرية ومذهب المنكرين للتعميد من ألمانيا ، والزوينجيلية والكالفينية من سويسرة والألزاس وفرنسا ؛ وسرعان ما ترجمت رسائل لوثر إلى الهولندية وشرحها وعاظ فى أنتورب وغنت ودور درخت واترخت وتسفولى ولاهاى. وتزعم الأخوة الرهبان الدومينيكان حركة معارضة نشيطة دحضوا فيها آراء خصومهم ، وقال أحدهم إنه يود لو استطاع أن ينشب أسنانه فى زور لوثر، وإنه لن يتردد فى أن يذهب لتناول العشاء الربانى والدم يلطخ فمه(١٦) ؛ ورأى الإمبراطور ، وهو لا يزال شاباً ، أن يخمد الهياج بنشر « إعلان ملصوق » بناء على طلب البابا ، يحرم طباعة مصنفات لوثر أو قراءتها ؛ وفى العام نفسه أمر المحاكم العلمانية بتنفيذ منشور ورمس فى سائر أرجاء الأراضى المنخفضة ضد كل من يعرض آراء لوثر . وفى اليوم الأول من يوليو عام ١٥٢٣ أرسل هنرى فوس وجوهان إيك ، وهما راهبان أوغسطينيان إلى المحرقة فى بروكسل ، فكانا أول شهيدين من البروتستانت فى الأراضى المنخفضة ؛ وسجن هنرى الزتفينى ، وهو صديق وتلميذ للوثر ، ورئيس الدير الأوغسطينى فى أنتورب ، وفر ، وقبض عليه فى هولستاين وأحرق هناك (١٥٢٤) وكان تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام بمثابة إعلان لآراء المصلحين الدينيين .

وعلى الرغم من الرقابة فإن ترجمة لوثر للعهد الجديد انتشرت على نطاق واسع ، وتداولها الناس فى هولندا بحماسة أكثر من الفلاندرز الغنية . وكانت هناك أمنية لإعادة المسيحية إلى بساطتها الأولى ، فنشأ عنها أمل ، بعد مرور ألف عام ، فى عودة المسيح مبكراً ، وإنشاء أورشليم جديدة لا تكون فيها حكومة ، ولا زواج ولا ملكية ، وامتزجت بهذه الأفكار نظريات

شيوعية عن المساواة وتبادل العون بل «والحب الحر[١٧]» وتكونت جماعات تنكر التعميد فى أنتورب وماسترخت وأمستردام . وجاء ملشيور «وفمان من إمدن إلى أمستردام عام (١٥٣١) وأعاد جون الليدنى عام ١٥٣٤ الزيارة يحمل معه عقيدة المنكرين للتعميد من هارلم إلى منستر ، وقدر أن ثلثى السكان فى بعض المدن الهولندية كانوا من المنكرين للتعميد ، بل إن العمدة فى ديفنتر تحول لنصرة القضية . وشحذت الجماعة الحركة ، فأصبحت ثورة اجتماعية » وكتب صديق لإرازموس عام ١٥٣٤ يقول « إن اشتعال حماسة المنكرين للتعميد فى هذه المقاطعات يجعلنا نشعر بقلق بالغ لأنه يتصاعد مثل ألسنة اللهب ولا تكاد توجد بقعة أو مدينة لا تتأجج فيها سراً شعلة التمرد[١٨] » . وحذرت مارى المنغارية الإمبراطور ؛ وكانت وقتذاك نائبة له ، من أن الثوار قد وضعوا خطة لانتهاب كل ضروب الملكية من النبلاء ورجال الاكليروس والأرستقراطية التجارية ، وتوزيع الغنائم على كل رجل حسب حاجته[١٩] » وفى عام ١٥٣٥ أرسل جون الليدينى مبعوثين لتدبير ثورة فى نفس الوقت يقوم بها المنكرون للتعميد فى عدة محلات هولندية ، وبذل الثوار جهود الأبطال ، فقـــد استولت جماعة على دير فى فريزلاند الغربية ، وحصنته ، وحاصرهم الحاكم بالمدفعية الثقيلة ، ومات ٨٠٠ وهم يدافعون دفاعاً لا أمل فيه ، (١٥٣٥) وفى ١١ مايو اقتحم بعض المنكرين للتعميد المسلحين قاعة المدينة فى أمستردام واستولوا عليها ، فطردهم سكان المدينة ، ونكلوا بالزعماء ، وانتقموا منهم انتقاماً مُفْزِعاً من رجال مُفَزَّعين ، فاسعلت الألسنة ، ومزقت القلوب من أجساد الأحياء ، وألقى بها فى وجوه المحتضرين أو الموتى[٢٠] .

وظن شارل أن ثورة شيوعية تتحدى البناء الاجتماعى بأكمله ، فاستقدم محكمة التفتيش إلى الأراضى المنخفضة ، وخول موظفيها سلطة سحق الحركة وكل الهرطقات الأخرى ، مهما قضى ذلك على الحريات المحلية . وأخذ

بين عامى ١٥٢١ و ١٥٥٥ يصدر الإعلان الملصق بعد الإعلان لمد الانقسام بين الطبقات الاجتماعية أو الانشقاق الدينى . وقد كشف أعنف هـذه الإعلانات (٢٥ سبتمبر سنة ١٥٥٠) عن تدهور الإمبراطور ، ووضعت الأسس التى قامت عليها ثورة الأراضى المنخفضة ضد ابنه :

لا يحق لأحد أن يطبع أو يكتب أو ينسخ أو يخفى أو يبيع أو يشترى أو يعطى فى الكنائس أو فى الشوارع أو غير ذلك من الأماكن أى كتاب أو رسالة من تأليف مارتن لوثر ، أوجون أو يكولا مباديوس ، أو أولريخ زوينجلى ، أو مارتن بوسر ، أو جون كالفن ، أو غيرهم من الهراطقة ، الذين استهجنت أعمالهم الكنيسة المقدسة . . . ولا يحق له أن يحطم أو يؤذى بأى صورة أخرى تماثيل العذراء المقدسة ، أو القديسين الذين اعترفت بهم الكنيسة . . . وليس له أن يعقد اجتماعات سرية أو اجتماعات غير قانونية ، أو يحضر أى اجتماع من هذه الاجتماعات ، التى يدعو فيها أنصار الهراطقة المذكورين ويعمدون ويدبرون مؤامرات ضد الكنيسة المقدسة والصالح العام . . . ونحن نمنع جميع الأشخاص العلمانيين من أن يتحدثوا أو يجادلوا فى أمر يتعلق بالكتب المقدسة جهراً أو سراً . . . أو أن يقرأوا أو يعلموا أو يفسروا الكتب المقدسة ، ما لم يكونوا قد درسوا اللاهوت فى حينه ، أو اعترفت بهم إحدى الجامعات المشهورة ، أو يرحبوا بأى رأى من آراء الهراطقة المذكورين . . وإلا تعرضوا للعقوبات المنصوص عليها فيما يلى . . . الرجال (تقطع رؤوسهم) بالسيف والنساء يدفن أحياء إذا لم يصررن على أخطائهن ، وإذا أصررن عليها فإنهن يعدمن حرقاً ، وفى كلتا الحالتين تصادر أملاكهن كلها لمصلحة التاج .

وتمنع كل الأشخاص أن يُنْزِلوا عندهم أو يستضيفوا أو يزودوا بالطعام أو الدفء أو الملابس أو يؤيدوا بأية طريقة أخرى أى امرئ يُعْتقد أنه هرطيق ، أو يشتبه فى أن له سمعة سيئة كهرطيق ، وكل من يتخلف

عن التنديد بأى واحد من هؤلاء الذين نأمر بإدانتهم يكون عرضة للعقوبات المذكورة آنفاً ،،،، وكل من يعرف شخصاً موصوماً بالهرطقة يجب أن يبلغ عنه ويسلمه ،،، ويكون للمبلغ ، فى حالة الإدانة ، الحق فى نصف أملاك المتهم ،،، ولكى لا يكون لدى القضاء والموظفين أى ذريعة — بحجة أن العقوبات جسيمة جداً وشديدة ، ولم ينص عليها إلا لإثارة الفزع فى قلوب المجرمين — ليوقعوا عليهم عقوبة أقل مما يستحقون (نأمر) بأن يعاقب المجرمون حقاً بالعقوبات التى أعلنا عنها سابقاً ، ونحظر على جميع القضاة أن يغيروا أو يخففوا العقوبات بأية طريقة ، ونحظر على أى أحد ، فى أى ظرف أن يطلب منا ، أو من أى أحد له سلطة ، أن يمنح عفواً عن ، أو أن يقدم التماس فى صالح ، هؤلاء الهراطقة أو المنفيين أو الهاربين ، وألا تعرض للحكم عليه إلى الأبد بعدم الأهلية لتولى الوظائف المدنية أو العسكرية ، ولأن يعاقب بعقوبة يقضى بها عليه بطريقة تحكمية(٢١) .

وعلاوة على هذا كان يطلب من أى شخص يدخل البلاد المنخفضة أن أن يوقع على تعهد بالولاء للعقيدة المحافظة بحذافيرها(٢٢) .

وتحولت الأراضى المنخفضة عن طريق هذه المنشورات اليائسة ، إلى ساحة قتال بين الشكلين القديم والجديد من المسيحية ؛ وقدر سفير البندقية فى بلاط شارل أن ٣٠٫٠٠٠ شخص ، وهم كل المنكرين للتعميد تقريباً ، هلكوا عام ١٥٤٦ فى هذه المذبحة الإمبراطورية الطويلة(٢٣) ، التى قتل فيها الآمنون من المواطنين ، وخفض تقدير آخر أقل إثارة عدد الضحايا إلى ١٠٠٠٠ شخص(٢٤) ؛ وبقدر ما كان الهولنديون المنكرون للتعميد مهتمين ، بقدر ما نجحت محكمة التفتيش الكاروليلية ، وظل بقية منهم على قيد الحياة فى هولندا بإبداء عدم المقاومة ، وهرب بعضهم إلى إنجلترا ، حيث أصبحوا من ألصار البروتستانتية النشطين فى عهد إدوارد السادس

والبزاة ، وانهارت الحركة الشيوعية فى الأراضى المنخفضة بعد أن روعها الاضطهاد وخنقها الرخاء .

ولكن عندما انحصرت موجة المنكرين للتعميد تدفق نهر من الهوجينوت المطاردين إلى الأراضى المنخفضة من فرنسا ، وجاءو معهم بإنجيل كالفن ، وراقت الحماسة الصارمة القائلة بالحكم الدينى للهرطقة الجديدة ، لمن ورثوا تقاليد المتصوفة وإخوان الحيـــاة المشتركة ، وكان قبول كالفن للعمل باعتباره كرامة بدلا من أن يعد لعنة ، وللثورة باعتبارها بركة بدلا من أن تعد جريمة ، وللنظم الجمهورية باعتبارها أكثر موافقة من الملكية للمطامح السياسية لطبقة رجال الأعمال ، يحتوى على أجزاء تلقى ترحيباً متفاوتاً من كثير من العناصر بين السكان . وما إن حل عام ١٥٥٥ حتى كانت هناك جماعات كالفيلية للمصـــلين فى إيبرس وتورناى وفالنسينس وروجس وغنت وانتورت ، وكانت الحركة تنتشر فى هولندة ويرجع الفضل إلى الكالفينية لا إلى اللوثرية ، أو مذهب المنكرين للتعميد ، فى أن ابن شارل سوف يحصر خلال جيل مرير ، فى صراع قدر له أن يشطر الأراضى المنخفضة إلى قسمين ، ويحرر هولندة من السيطرة الإسبانية ، ويجعلها موطناً وملجأ من أعظم المواطن والملاجئ للفكر الحديث .

وفى عام ١٥٥٥ طرح شارل الخامس كل أحلامه ما عدا حلمه بأن يموت فى طهارة ، وتخلى عن أمله فى قمع البروتستانتية فى ألمانيا والأراضى المنخفضة أو مهادنة الكاثوليكية فى مجلس ترنت ، وتخلى عن طموحه فى زعامة البروتستانت والكاثوليك والألمان والفرنسيين ، فى زحف رائع يقوم به ضد سليمان والقسطنطينية والتهديد التركى للعالم المسيحى . وقد أدى إفراطه فى الطعام والشراب والعلاقات الجنسية وحملاته المنهكة وأعباء منصب واجه صدمة تغيير ثورى إلى تحطيم جسده وتبلد سياسته وتحطيم

إرادته . وكان يشكو من قروح ، وهو فى الثالثة والثلاثين ، واكتمل فى الخامسة والثلاثين وأصيب وهوفى الخامسة والأربعين بالنقرس والربو وسوء الهضم والتأتأة ، وكان وقتذاك يقضى نصف وقت يقظته فى ألم ، ووجد أنه من الصعب عليه أن ينام ، وكثيراً ما كانت الصعوبة التى يجدها فى التنفس تجعله يجلس منتصباً طوال الليل ، وكانت أصابعه مشوهة بداء المفاصل ، إلى درجة أنه لم يكد يستطيع أن يقبض على القلم ، الذى وقع به على صلح كريبى . وعندما قدم كولينى رسالة من هنرى الثانى ، لم يستطع شارل أن يفتحها إلا بصعوبة وقال متسائلا : « ما رأيك فىّ يا سيدى أمير البحر ؟ ألست فارساً رائعاً يستطيع أن يهاجم ويحطم حربة ، أنا الذى لا أستطيع أن أفتح خطاباً إلا بعد مشقة كبيرة ؟[٣٠] » ولعل قسوته العارضة وشيئاً من الوحشية التى هاجم بها البروتستانتية فى الأراضى المنخفضة ، ترجع إلى نفاد صبره بسبب آلامه . وأمر بقطع أقدام الأسرى من الجنود الألمان المرتزقة ، الذين حاربوا فى صفوف فرنسا ، على الرغم من أن ابنه الذى قدر له أن يكون فيليب الثانى الصلب الرأى ، طلب لهم الرحمة[٣٦] ، وقد حزن حزناً مريراً دام طويلا لوفاة زوجته الحبيبة إيزابلا (١٥٣٩) ، ولكنه سمح فى حينه بحضور عذارى لا حول لهن ولا طول إلى مخدعه[٣٧] .

ودعا فى خريف عام ١٥٥٥ إلى عقد اجتماع لمجلس الطبقات فى الأراضى المنخفضة ، يوم ٢٥ اكتوبر ، واستدعى إليه فيليب من إنجلترا . وفى قاعة دوقات برابانت الواسعة المغطاة بالسجاجيد فى بروكسل حيث اعتاد فرسان الجزة الذهبية أن يعقدوا اجتماعاتهم ، اجتمع النواب والنبلاء والحكام من سبع عشرة مقاطعة فى نطاق حرس من الجند المدججين بالسلاح . ودخل شارل يستند على كتف وليام أف أورانج ، الذى قدر له أن يكون عدواً لابنه فى المستقبل . وتبعه فيليب مع نائبة الإمبراطور مارى الهنغارية ، ثم أمانويل فيليبرت أ ف سافوى ، ومستشارور الإمبراطو ، وفرسان الجزة

الذهبية ، وكثير من الأعيان الآخرين الذين أقبلت عليهم الدنيا يوماً قبل أن تنساهم . وعندما جلس الجميع نهض فيليبرت وشرح فى إسهاب ووضوح اغتبط لهما شارل ، الأسباب الصحية والعقلية والسياسية التى حـــدت بالإمبراطور إلى إبداء رغبته فى أن يتنازل عن حكم الأراضى المنخفضة لابنه ، ثم وقف شارل نفسه وهو يتكئ من جديد على أمير أورانج الوسيم فارع القامة ، وتحدث ببساطة ، وفى صميم الموضوع ، ولخص كيف ارتقى إلى أن بلغ آفاقاً متسعة من السلطان على التعاقب وتحدث عن ذوبان حياته فى الحكم . وتذكر أنه زار ألمانيا تسع مرات وإسبانيا ستا وفرنسا أربعاً وانجلترا وأفريقية مرتين ، وقام بإحدى عشرة رحلة بالبحر واستأنف كلامه قائلا :

هذه هى المرة الرابعة التى أفكر فيها فى الذهاب لإسبانيا من الآن ... ولم يسبق أن جربت شيئاً سبب لى مثل هذا الألم العظيم .... الذى أشعر به وأنا أفترق عنكم من اليوم دون أن أترك خلفى ذلك السلام والهدوء اللذين طالما رغبت فى تحقيقهما ... ولكنى لم أعد قادراً على مباشرة شئونى دون أن أشعر بتعب شديد يسرى فى بدنى ، وبالتالى ألحق بالدولة الضرر ... وإن ما يتطلبه تحمل المسئولية من اهتمام عظيم ، وما تسببه خور بالغ للعزيمة ، وصحتى التى تدهورت من قبل ، كل هذه لم تعد تترك لى القوة اللازمة للحكم .. وينبغى لى فى حالتى هذه أن أقدم لله والإنسان حساباً خطيراً إذا لم أطر السلطة عن كاهلى ... وأن ابنى ، الملك فيليب قد وصل إلى سن تمكنى لأن يكون قادراً على حكمكم ، وهو ، كما أرجو ، أمير صـــالح لكل رعاياى المحبوبين(٢٨) .

وعندما تهالك شارل متألماً فى مقعده نسى الحاضرون خطاياه واضطهاده وهزائمه ، رثاء لرجل عمل جاهداً مدى أربعين عاما ، حسب ما أملته عليه آراؤه وسمحت به قدرته ، تحت وطأة أثقل الالتزامات فى عصره . وبكى كثير من السامعين . ونصب فيليب رسمياً حاكماً للأراضى المنخفضة ، وحلف

يميناً مغلظة (كما سوف يذكر بها فيما بعد) أن يراعى كل القوانين والحقوق التقليدية للمقاطعات ؛ وفى أوائل عام ١٥٥٦ سلم له شارل تاج إسبانيا ، بكل ممتلكاته فى العالم القديم والعالم الجديد، واحتفظ شارل باللقب الإمبراطورى، وكان يأمل أن ينقله لإبنه قريباً ، ولكن فرديناند احتج ، وفى عام ١٥٥٨ تنازل الإمبراطور عن لقبه لأخيه . وسافر شارل بحراً فى السابع عشر من سبتمبر سنة ١٥٥٦ من فلشنج إلى إسبانيا .

٦ — إسبانيا

١ — ثورة العامة : ١٥٢٠ — ٢٢

كانت نعمة مشكوكاً فيها لإسبانيا أن يصبح الملك شارل الأول (١٥١٦ — ٥٦) الإمبراطور شارل الخامس (١٥١٩ — ٥٨) ، وولد وتربى فى الفلاندوز : وتعلم مناهج الحياة الفلمنكية ، واكتسب الأذواق الفلمنكية ، إلى أن تغلبت عليه روح إسبانيا فى سنواته الأخيرة . ولم يكن فى وسع الملك إلا أن يصبح جزءاً صغيراً من الإمبراطور ، الذى كان مشغولا تماماً بالإصلاح الدينى والبابوية وسليمان وبارباروسا وفرانسيس الأول ، وشكا الإسبان أنه لم يمنحهم إلا القليل من وقته ، وأنه أنفق الكثير من مواردهم البشرية والمادية فى المحلات التى كانت فى الظاهر لا تهم المصالح الإسبانية . وكيف كان فى وسع إمبراطور أن يتعاطف مع نظم جماعية جعلت إسبانيا تتمتع بنصف ديمقراطية ، قبل مجئ فرديناند الكاثوليكى ، وكانت تتوق كثيراً إلى أن تستعيدها ؟

وقام بأول زيارة لمملكته (١٥١٧) ولم تكسبه حب أحد : وعلى الرغم من مضى عشرين شهراً عليه وهو ملك ، فإنه كان لا يزال لا يعرف الإسبانية وكان عزله الفظ لا كسيمينس صدمة للدماثة الإسبانية . وجاء يحيط به فلمنكيون ، ظنوا إسبانيا بلداً همجياً تنتظر من يحلبها . وعين الملك البالغ من العمر سبعة عشر عاماً هذه الديدان الطبية فى أعلى المناصب . ولم تخف المجالس التشريعية الإقليمية المختلفة التى يسيطر عليها صغار النبلاء ، تفورها وهـــدم رضاها

عن ملك أجنبى ، ورفض المجلس التشريعى فى قشتالة أن يعترف له باللقب ، ثم اعترف به على كره منه حاكماً ، تشترك معه فى الحكم أمه المعتوهة جوانا ، وجعله يفهم أنه لا بد من أن يتعلم الإسبانية ، ويعيش فى إسبانيا ، وألا يعين مزيداً من الأجانب فى أى منصب ، وقدمت المجالس التشريعية طلبات مماثلة ، ووسط مظاهر الإذلال التى تعرض لها شارل تلقى أنباء بأنه انتخب إمبراطورا ، وأن ألمانيا كانت تدعوه للحضور لكى يتوج ، وعند ما سأل المجلس التشريعى فى بلد الوليد (وكانت وقتذاك العاصمة) أن يمول الرحلة منى بالمثل والحيبة ، وساد هرج هدد حياته ، وحصل آخر الأمر على المال من المجلس التشريعى فى كورونا وأسرع إلى الفلاندرز ، ولكى يجعل الأمور محفوفة بالمخاطر أضعافاً مضاعفة أرسل نواباً corregidores لحماية مصالحه فى المدن ، وترك مربيه السابق أدريان كاردينال أترخت نائباً له فى إسبانيا .

وثارت البلديات الأسبانية واحدة وراء الأخرى فى « ثورة أعضاء الكومون » ونفوا النواب الـ corregidores وقتلوا بعض النواب الذين صوتوا بالموافقة على منح أموال لشارل ، وتحالفوا فيما يعرف باسم Santa Communidad الذى تعهد بالإشراف على الملك . وانضم النبلاء ورجال الكنيسة وأوساط الناس إلى الحركة ونظموا فى أفيلا (أغسطس سنة ١٥٢٠) الـ Santa Iunta أو الاتحاد المقدس ليكون بمثابة حكومة مركزية . وطالبوا بضرورة اشتراك المجالس التشريعية مع المجالس الملكية فى اختيار نائب الملك ، وعدم شن حرب بغير موافقة المجالس التشريعية ، وألا يحكم المدينة النواب بل يحكمها قضاة ، أو عمد يختارهم المواطنون[٢٩] . ودافع أنطونيو دى أكونيا أسقف سمورة علنا عن قيام جمهورية ، وحول أتباعه من رجال الاكليروس إلى محاربين ثوريين ، وقدم موارد أسقفية للثورة . وعين جوان دى بادبلا ، وهو نبيل من طليطلة ، قائدا لقوات الثوار . فقادها لتستولى على نورديسيلاس ، وأخذ جوانا لا لوكا رهينة ،

وحثها على أن توقع واقعة ، تخلع فيها شارل ، وتعين نفسها ملكة ، وكانت عاقلة فى جنونها ، فرفضت .

ولم يكن لدى أدريان ما يكفى من الجند لقمع الثورة ، فاستغاث بشارل وطلب منه العودة ، وألقى تبعة قيام الثورة صراحة على تحكم الملك وحكمه للغيابى . ولم يحضر شارل ، ولكنه وجد هو أو مستشاروه سهيلا لإشاعة الانقسام والانتصار ، فقد حذر النبلاء أن الثورة كانت تهديدا لطبقات أصحاب الأملاك والتاج على السواء ، والحق أن الطبقات العاملة ، التى ظلمت منذ عهد بعيد بالأجور الثابتة ، والعمل سخرة ، وتحريم الاتحاد ، كانت قد استولت من قبل على السلطة فى عدة مدن ، وفى بلنسية والمنطقة المجاورة لها قبض الجرمانيا Germania أو إخوة أبناء الطوائف الحرفية على الزمام ، وسيطروا على بلدان للعمال ، وكانت هذه الدكتاتورية البروليتارية نقية على غير العادة ، وفرضت على آلاف المغاربة الذين ظلوا فى المقاطعة أن يختاروا بين التعميد والموت ، وقتل آلاف من الذين رفضوا فى عناد(٣٠) ، وثار العامة فى ماجوركا ، الذين عاملهم سادتهم كالعبيد ، ثورة مسلحة ، وخلعوا الحاكم المعين من قبل الملك ، وذبحوا كل نبيل لم يستطع أن يفلت منهم ، وتخلت كثير من المدن عن روابطها مع الإقطاعيين ومستحقاتها لهم ، وفى مدريد وسجونزا ووادى الحجارة ألغت الحكومة البلدية الجديدة كل النبلاء والأعيان من المناصب ، وقتل الأشراف هنا وهناك ، وفرض الاتحاد Junta ضرائب على أملاك النبلاء السابق إعفاؤها . وأصبح النهب عاماً ، وأحرق العامة قصور النبلاء وذبح النبلاء العامة ، وانتشر الصراع بين الطبقات فى أرجاء إسبانيا .

وقضت الثورة على نفسها بالتوسع فى أهدافها ، توسعاً جاوز حدود طاقاتها ، وانقلب عليها النبلاء ، وحشدوا قواتهم ، وتعاونوا مع قوات الملك ، واستولوا على بلنسية ، وأطاحوا بالحكومة البروليتارية ، بعد أيام سقط فيها

قتلى من الجانبين (١٥٢١) ، وانقسم جيش الثوار ، عند ما بلغت الأزمة ذروتها ، إلى فرقتين متنافستين بقيادة باديلا ودون بدرو جيرون ، وانقسمت الجماعة السياسية إلى أحزاب ، يناصب بعضها بعضاً العداء ، وواصلت كل مقاطعة ثورتها ، دون تآزر مع باقى المقاطعات .

وانطلق جيرون ، وانضم إلى الملكيين الذين استولوا من جديد على توردیسلاس وجوانا . أما جيش باديلا الذى تضاءل عدد جنوده فقد هزم هزيمة منكرة فى فيلالار ، وأعدم باديلا . وعند ما عاد شارل إلى إسبانيا (يوليو سنة ١٥٢٢) ومعه ٤٠٠٠ جندى ألمانى ، كان النبلاء قد فازوا بالنصر ، وقد أضعف النبلاء والعامة بعضهم بعضاً إلى حد أنه استطاع أن يتغلب على البلديات والطوائف الحرفية ، ويروض المجالس التشريعية ، ويوطد أركان ملكية تكاد تكون مطلقة . وقد قمعت الحركة الديمقراطية تماماً بحيث ظل كل العامة الإسبان خائفين خاضعين ، حتى القرن التاسع عشر . وخفف شارل سلطته بالدماثة ، وأحاط نفسه بالنبلاء ، وتعلم الحديث بلغة إسبانية سليمة ، وسرت إسبانيا عند ما علق قائلا إن الإيطالية هى اللغة اللائقة لكى تتحدث بها النساء ، والألمانية هى لغة الأعـــداء ، والفرنسية لغة الأصدقاء ، والإسبانية لغة الرب(٣١) .

٢ ــ البروتستانت الإسبان

لم تكن هنا إلا قوة واحدة تستطيع أن تتحدى شارل ــ هى الكنيسة ــ وكان نصيراً للكاثوليكية ، ولكنه مناهض للبابوية : وسعى ، مثل فرديناند الكاثوليكى ، إلى جعل الكنيسة الإسبانية مستقلة عن البابوات ونجح فى هذا إلى حد أن التعيينات فى مناصب الكنيسة ودخول الكنيسة إبان حكمه كانت فى يديه ، واستخدمت لرفع شأن السياسة الحكومية : ولم تكن هناك حاجة للإصلاح الدينى فى إسبانيا ، كما هو الحال فى فرنسا ؛ لكى تتبع الكنيسة

للدولة . ومع ذلك فإن الحماسة للعقيدة المحافظة الإسبانية ، إبان نصف مدة حكمه ، التى قضاها فى مملكته ، استحثته إلى حد أنه فى سنواته الأخيرة لم يكن هناك أمر (باستثناء قوة آل هابسبرج) يهمه أكثر من قمع الهرطقة .

وبينما حاول البابوات أن يخففوا من وطأة محكمة التفتيش فإن شارل أيدها حتى وفاته . وكان مقتنعاً بأن الهرطقة فى الأراضى المنخفضة كانت تؤدى بها إلى الفوضى والحرب الأهلية ، وصمم على أن يمنع حدوث مثل هذا التطور فى أسبانيا

وأخمدت محكمة التفتيش الإسبانية سورة غضبها ، ولكنها مدت رقعة اختصاصها القضائى فى عهد شارل . فاضطلعت بعبء الرقابة على المصنفات ، وقامت بتفتيش كل مخزن للكتب ، وأمرت بإحراق الكتب الموصـــومة بالهرطقة(٣٢) . واستقصت حالات الانحراف الجنسى وعاقبت عليها : ووضعت قواعد نقاء الدم **Limpieza** ، التى أغلقت كل طرق التميز أمام ذرية المتحولين إلى غير دينهم **Conversos** وكل من عاقبتهم المحكمة . وكانت تنظر إلى المتصوفة نظرة قاسية ، لأن بعض هؤلاء ادعوا أن صلتهم المباشرة بالله أعفتهم من حضور الصلاة فى الكنيسة ، وأضفى آخرون على حالات وجدهم الصوفى طعماً جنسياً مشبوهاً . وأعلن الواعظ العلمانى بدرو رويز دى الكراز أن الجماع هو اتحاد بالرب حقاً ، وقال الأخ الراهب فرانسيسكو أورتيز مفسرا أنه عند ما يرقد مع زميلة متصوفة جميلة فإنه لا يرتكب خطيئة من خطايا الجنس ، بل ينعم بمتعة روحية(٣٣) . وعاملت محكمة التفتيش برفق هؤلاء المتنورين **Alumbrados** واحتفظت بأقسى إجراءاتها ضـــد البروتستانت فى إسبانيا .

وكما حدث فى شمالى أوروبا وقعت مناوشـــة إرازمية قبل معركة البروتستانت ، وهتف بعض رجال الكنيسة المتحررين استحساناً لانتقادات علماء الإنسانيات لأخطاء رجال الإكليروس ، ولكن إكسيمنيس وآخرين

كانوا قد قوموا من قبل المظالم البارزة أكثر من غيرها ، قبل مجيء شارل . ولعل اللوثرية كانت قد تخللت أرض إسبانيا مع الألمان والبلجيكيين المتكلمين بالفلمنكية فى الحاشية الملكية . وأدانت محكمة التفتيش ألمانيا فى بلنسية عام ١٥٢٤ ، لأنه جاهر بالتعاطف مع لوثر ، وحكم على فلمنكى بالسجن مدى الحياة عام ١٥٢٨ ، لتشككه فى المطهر وصكوك الغفران ، وأحرق فى المحرقة فرانسيسكو دى سان رومان ، أول من عرف من اللوثريين الإسبان عام ١٥٤٢ ، بينما كان المشاهدون المتحمسون يطعنونه بسيوفهم : واعتنق جوان دياز اف كوينكا ، الكالفينية فى جينيف ، فاندفع أخوه ألفونسو من إيطاليا ليحوله مرة أخرى إلى العقيدة المحافظة ، وعند ما فشل الفونسو عمل على قتله (١٥٤٦)[٣٤] وسجن جوان جيل ، أو أجيديو ، وهو كبير قساوسة متعلم فى أشبيلية ، لمدة عام بسبب وعظه ضد عبادة الصور والصلاة للقديسين وفاعلية الأعمال الصالحات فى الفوز بالخلاص . ونبشت عظامه بعد وفاته وأحرقت ، وواصل رفيقه كبير القساوسة كونستانتينو بونس ديلافويلتى ، دعايته ، ومات فى سجون محكمة التفتيش . وأحرق أربعة عشر من زملاء كونستانتينو ، ومنهم أربعة رهبان وثلاثة نساء ، وحكم على عدد كبير بعقوبات مختلفة ، ودك البيت الذى اجتمعوا فيه حتى سوى بالأرض .

وتطورت جماعة نصف بروتستانتية أخرى فى بلد الوليد ، وهنا تورط نبلاء من ذوى النفوذ ورجال دين من أصحاب الرتب الرفيعة . ووُشِي بهم لمحكمة التفتيش ، وقبض عليهم جميعاً تقريباً وحكم عليهم بالإدانة ، وحاول البعض مغادرة إسبانيا فقبض عليهم وأعيدوا . وكان شارل الخامس وقتذاك يستحم فى يوستى ، فأوصى بعدم إظهار أية رحمة فى معاملتهم ، وقطع رأس التائبين وإحراق من يرفضون التوبة . وفى يوم أحد الثالوث الموافق ٢١ مايو سنة ١٥٥٩ أعدم أربعة عشر من المحكوم عليهم أمام جمع متهلل[٣٥] . وتراجع الجميع عما قالوا إلا واحداً ، وعوملوا برفق ، وقطعت رءوسهم ، أما أنطوليو

دى هرزويلو الذى رفض التوبة فقد أحرق حياً . وسمح لزوجته ليونور دى ميزنيروس البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً بالسجن مدى الحياة : وبعد أن أمضت عشر سنوات فى السجن، عدلت عن انكارها لما قالت ، وجاهرت بهرطقتها ، وطابت أن تحرق حية مثل زوجها فأجيبت إلى ملتمسها(٣٦) . وعرض ستة وعشرون آخرون من المتهمين للحرق أحياء فى اليوم الثامن من أكتوبر سنة ١٥٥٩ ، أمام حشد مكون من ٢٠٠ر٠٠٠ شخص ، يرأسه فيليب الثانى : وحرقت ضحيتان وهما حينان وخنق عشرة :

وكان بارتلومى دى كارانزا ، رئيس أساقفة طليطلة ورئيس أساقفة إسبانيا ، أشهر فريسة وقعت فى براثن محكمة التفتيش فى هذه الفترة . وكان باعتباره من الدومينيكان قد قام بنشـــاط كبير فى مطاردة الهراطقة والإيقاع بهم ، وعينه شارل مبعوثاً له فى مجلس ترنت ، وأرسله إلى إنجلترا لحضور زواج فيليب والملكة مارى . وعندما انتخب رئيساً للأساقفة (١٥٥٧) كان الاختيار بالإجماع ما عدا صوته . ولكن بعض « البروتستانت » الذين قبض عليهم فى بلد الوليد شهدوا بأن كارانزا كان قد تعاطف سراً مع آرائهم ، ووجد أنه كان قد راسل المصلح الدينى الإسبانى الإيطالى جوان دى فالديس ، واتهمه عالم للاهوت ذو النفوذ ملشيور كانو بأنه كان يعضد العقيدة اللوثرية فى التزكية بالإيمان : ولم يقبض عليه إلا بعد سنتين من ارتفاع شأنه ووصوله إلى أعلى منصب كنسى فى إسبانيا ، ونستطيع أن نحكم من هذا على مدى قوة محكمة التفتيش . وظل سبعة عشر عاماً معتقلا فى سجن أو غيره ، بينما كانت تصرفاته فى حياته ورسائله تتعرض للفحص والاستقصاء فى طليطلة وروما . وأعلن جريجورى الثالث عشر أنه « مشتبه فيه بشدة » بالهرطقة وأمره بأن ينكر ستة عشر ادعاء ، وأوقفه لمدة خمس سنوات عن مباشرة وظيفته : وتقبل كارانزا الحكم فى ذلة ، وحاول أن

يؤدى الكفارات التى فرضت عليه ، ولكنه مات فى خلال خمسة أسابيع بعد أن أنهكه السجن والإذلال (١٥٧٦) .

وبموته زال خطر البروتستانتية عن إسبانيا ، وحدث أن أعدم حوالى ٢٠٠ شخص بين عامى ١٥٥١ و١٦٠٠ ، لما نسب إليهم من هرطقات بروتستانتية — أى بواقع أربعة أشخاص كل عام . وقد تجمد طمع الناس ، الذى كان قوامه من كراهية المغاربة واليهود ، التى تأصلت جذورها قروناً طويلة ، فى عقيدة محافظة لا تتزعزع ، وامتزجت الكاثوليكية وحب الوطن ، ووجدت محكمة التفتيش أن من اليسير أن تسحق ، فى خلال جيل أو جيلين ، المغامرة الإسبانية العابرة التى اتسمت بفكر مستقل .

٣ — الإمبراطور يموت : ١٥٥٦ — ٥٨

قام شارل الخامس فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٥٦ بالدخول إلى إسبانيا لآخر مرة . واستغنى فى برجوس عن خدمات معظم الذين كانوا قد عملوا معه ومنحهم مكافآت ، وودع شقيقتيه ، مارى الهنغارية واليونورا ، أرملة فرانسيس الأول ، وأبديا رغبتهما فى مشاركته اعتزاله فى الدير ، ولكن القواعد منعتهما ، فاتخذا لهما مسكنا فى موضع لا يبعد كثيراً عن هذا الشقيق الذى يبدو أنه لم يكن هناك من يحبه وقتذاك سواهما . وبعد أن أقيمت له عدة احتفالات فى الطريق ، وصل قرية جواندیلا فى وادى بلازنسيا ، على مسيرة نحو ١٢٠ ميلا غربى مدريد ، ولبث هناك عدة شهور ، ريثما أكمل العمال الحجرات التى أمر بتجهيزها وتأثيثها فى دير يوستى (سانت جوستوس) على مسيرة ستة أميال . وعندما قام بالمرحلة الأخيرة من رحلته (٣ فبراير سنة ١٥٥٧) ، لم ينتقل إلى خلوة فى دير بل إلى قصر ريفى فسيح ، اتسع لإقامة المقربين من تابعيه الخمسين . وابتهج الرهبان بوجود ضيف عظيم مثله ، بيد أنهم اكتأبوا عندما

وجدوا أنه ليس لديه النية فى أن يشاركهم حيتهم ونظامهم ، فقد كان يأكل ويشرب كميات كبيرة ، كما كان يفعل من قبل — أى بإفراط ، وكانت عجات السردين وسجق الاسترمادورا وفطائر ثعبان السمك ، ولحم الحجل المملح والديوك الخصية السمينة وأنهار من النبيذ والجعة ، تختفى فى كرشه الإمبراطورى ، واضطر أطباؤه إلى أن يصفوا له كميات كبيرة من السنامكى والراوند للتخلص من الزيادة فى وزنه .

وبدلا من أن يتلو شارل تسابيحه وأوراده ومزاميره كان يقرأ رسائل من ابنه أو يملى رسائل له ، وكان يعرض عليه النصيحة فى كل وجه من وجوه الحرب واللاهوت والحكم . وأصيح فى العام الأخير من عمره متعصباً متطرفاً قاسياً ، وأوصى بتوقيع عقوبات وحشية « لاستئصال جذور » الهرطقة ، وأسف لأنه كان قد سمح للوثر بالهرب منه فى ورمس ، وأمر بجلد أى امرأة ماثة جلدة إذا اقتربت من أسوار الدير قاب قوسين أو أدنى(٣٧) . وراجع وصيته لكى ينص فيها على إقامة ٣٠٫٠٠٠ قداس من أجل طمأنينة روحه ؛ ويجب ألا نحكم عليه من أعماله فى أيام الشيخوخة هذه ، ولعل لوثة خبل قد انتقلت إليه بالوراثة من أمه .

وفى أغسطس عام ١٥٥٨ انقلب النقرس الذى يشكو منه إلى حمى ملتهبة . وعاودته هذه بصورة متقطعة ، وأخذت تشتد يوماً بعد يوم ، وظل شهراً يتعذب بكل آلام النزع الأخير قبل أن تزهق روحه (٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٨) . وفى عام ١٥٧٤ أمر فيليب بنقل الجثة إلى الاسكوريال حيث يرقد تحت نصب تذكارى فخم .

وكان شارل الخامس أكبر فاشل فى عصره ، بل إن فضائله كانت أحياناً بؤساً وشقاء للإنسانية . ومنح إيطاليا السلام ، ولكن لم يتم هذا إلا بعد مرور عقد من الزمان ، تعرضت فيه للتخريب ، وبإخضاعها

هى والبابوية لإسبانيا ، وجف عود النهضة الإيطالية تحت رئاسته الكئيبة . وهزم فرانسيس وأسره ، ولكن ضاعت منه فى مدريد فرصة ملكية ليبرم معه معاهدة كانت حرية بأن تنقذ ماء كل الوجوه ومائة ألف روح . وعاون فى إعادة سليمان إلى بلاده فى فيينا ، وصد بربار وسا فى البحر الأبيض المتوسط . وقوى مركز آل هابسبورج ، ولكنه أضعف الإمبراطورية ، وفقد اللورين وسلم بورغنديا ، وأحبط أمراء ألمانيا محاولة لتركيز السلطة هناك ، وكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ عهده نسيجاً واهياً ، تنتظر نابليون ليحكم بإعدامها . وفشلت جهوده لسحق البروتستانتية فى ألمانيا ، وترك الأسلوب للذى انتهجه فى قمعها فى الأراضى المنخفضة تراثاً محزناً لابنه ، وكان قد وجد المدن الألمانية مزدهرة وحرة ، وتركها ترزح ألماً تحت وطأة إقطاع رجعى . وعندما جاء إلى ألمانيا كانت تنبض بالحياة ، فيها أفكار ونشاط تبز بهما أية أمة أخرى فى أوروبا وعندما تنازل عن عرشه كانت ضعيفة واهنة روحياً وفكرياً ، وظلت جدباء مدى قرنين . وكانت السياسة التى انتهجها فى ألمانيا وإيطاليا سبباً واهيا لما لحقهما من ضعف ، أما فى إسبانيا فكان عمله هو الذى سحق حرية البلديات وقوتها ، وكان حريا بأن يبقى إنجلترا فى حظيرة الكنيسة بإقناع كاثرين أن تسلم بحاجة هنرى إلى وريث ، وبدلا من أن يفعل ذلك أجبر كليمنت على اتخاذ موقف فيه تذبذب ، يؤدى إلى الخراب .

ومع ذلك فإن استبصارنا المتأخر هو الذى يرى أخطاءه وجسامتها ، وفى وسع حسنا التاريخى أن يصفح عنها باعتبارها متأصلة بجذورها فى قيود بيئته العقلية وفى أوهام العصر العاتية . وكان أقدر سياسى بين معاصريه ، ولكنه لم يكن كذلك إلا بمعنى أنه عالج بشجاعة أعمق موضوعات النزاع فى أوسع مدى وصلت إليه . وكان رجلا عظيما حطت من شأنه مشكلات عصره وحطمته .

ونفذت إلى حكمه الطويل حركتان أساسيتان ، وكانت أعظمهما نمو القومية فى عهد ملكيات تنزع إلى المركزية ، وفى هذه لم يكن له فيها نصيب . وأعظمها من الناحية الدرامية ثورة دينية ، حفزت إليها الانقسامات والمصالح القومية والإقليمية ، وقبلت شمالى ألمانيا واسكندينافوة اللوثرية ، أما جنوب ألمانيا وسويسرة والأراضى المنخفضة فقد انقسمت إلى طائفتين بروتستانتية وكاثوليكية ، وأصبحت إسكوتلندة كالفينية مشيخية ، وإنجلترا كاثوليكية إنجيلكانية أو بيوريتانية كالفينية ، وظلت إيرلندة وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال موالية لبابوية بعيدة أو مهذبة . ومع ذلك نشأ تكامل واه ، وسط ذلك الانقسام المزدوج : فقد وجدت الولايات المستقلة المعتزة بنفسها أنها فى حاجة إلى بعضها البعض ، لضمان استقلالها ، كما لم يحدث من قبل ، وأنها مرتبطة بصورة متزايدة فى نسيج اقتصادى ، وأنها تؤلف مسرحاً رحيباً لمناهج سياسية متشابكة العلاقات ، وحروب وقانون بأدب وفن . كانت أوروبا التى عرفها شبابنا تتخذ شكلها .

Obeikandl.com

المراجع

NOTES

مراجع فصل ٢١ من الجزء الرابع والعشرين

CHAPTFR XXI

1. Cath. En. III, 196.
2. Beza in Schaff, *Swiss Ref* 302.
4. Calvin *Institutes*, Preface, 20-2, 39-40.
5. *Institutes*, I, viii, 1.
6. Ibid., II, v., 19.
7. Ephesians, i, 3-7.
8. *Institutes*, III, xxi-xxii.
9. Romans, ix, 15.
10. *Institutes*, II, xxi, 7.
11. Consensus Genevensis in Schaff. *Swiss Ref.*, 554.
12. *Institutes*, III, xxi, 1.
13. Ibid.
14. III, xxiii, 7.
15. IV, i, 10.
16. IV, i, 4.
17. Allen, *Political Thought*, 61; Hearnshaw, *Thinkers of the Renaissance and the Reformation*, 211.
18. *Institutes*, IV, xix, 3.
19. III, xxi, 1.
20. Schaff, 558.
21. *Institutes*, III, ix, 4.
22. Ibid.
23. III, ix, 6.
24. For : La Tour, IV, 32, and *Camb. Mod. Hy*, II, 258 ; against : Cath. En., III. 196a.
25. *Comb. Mod. Hy*, II, 360.
26. Robinson, *Readings*, 299.
27. Schaff, 361.
28. Ibid., 414.
29. 412.
30. 426.
31. 437.
32. Robinson, *Readings*, 300.
33 La Tour, IV, 178.
34. Villari, *Savonarola*, 491.
35. Schaff, 492.
36. Beard, *The Reformation*, 250.
37. Ibid., Schaff, 491.
38. Ibid., 492.
39. O'Brien, *Economic Effects*, 101.
40. As by Weber, Max, *The Protestam Ethic and the Spirit of Capitalism, passim*; Barnes *Economic Hy. of the Western orld*, 201-2 ; and O'Brien, 12[A].
41. *Institutes*, III, vii, 5.
42. Cf. O'Brien. 100.
43. Ibid., 20.
44. Tawney, 119.
45. Barnes, *Economic History*, 201.
46. Schaff, 644.
47. Beard, *The Reformation*, 252 ; Mulr, *John Knox*, 108.
48. Smith, *Reformation*, 174.
49. Schaff 519.
50. Ibid., 839.
51. La Tour, IV, 206.
52. Schaff, 739.
53. La Tour, IV, 200 ; Schaff, 594.

54. Schaff, 618.
55. Ibid., 502.
56. Robertson, J.M. *Freetbougbt*, l, 443-4.
57. Servetus, *De Trinitatis erroribus*, i, 94b. in Bainton, *Hunted, Heretic*, 48.
58. Servetus, ibid., i, 34 ; Newman, L, I., *Jewisb Influence on Cbristian Reform Movements*, 584.
59. Bainton, *Hunted Heretic*, 144.
60. Ibid.
61. Ibid., 147.
62. Schaff, 733.
63. Bury, J. B., *History of Freedom of Tbougbt*, 64.
64. Schaff, 770.
65. Ibid., 764, 773; Bainton, 191.
66. Bainton, 188.
67. Schaff, 777.
68. Ibid., 778.
69. Bainton, 185.
70. Ibid., 209-11 ; Schaff, 710, 781-4.
71. Schaff, 784.
72. Walker, *John Calvin*, 425.
73. Schaff, 707-8.
74. Ibid.
75. 709.
76. In Allen, *Political Tbougbt*,
77. Castellio in Allen, 90-4 ; Haydn, *Counter-Renaissance*, 104.
78. In Allen, 98.
79. *Time* magazine, Fed, 22, 1954.
80. Schaff 652n.

CHAPTER XXII

1. In Lacroix, *Prostitution* ; II 1142.
2. Ibid., 1141.
3. 1130.
4. Taylor, R., *Leonardo*, 444.
5. Sichel, *Catberine de' Medici and tbe 'Frencb Reformation*, 38.
6. Erasmus, *Colloquies*, II, 54.
7. Erasmus, *Epistles*, II, 468.
8. Michelet, III, 175.
9. E.g., Aretino, *La cortigiana*, in *Dialogues*, 228.
10. Batiffol, *Century of the Renaissance*, 44.
11. Lacroix, *Prostitution*, II, 1131
12. Cellini, *Au ography*, ii, 10.
13. Guizot, *Hy of France*, III, 81.
14. Ibid., Michelet, III, 218.
15. Michelet, III, 148.
16. Sichel, *Women and Men of tbe Frencb Renaissance*, 87.
17. Ibid .
18. Michelet, III, 135.
19. Sichel, *Women*, 193.
20. Faguet, *Literary History of France*, 281 .
21. Margaret, Queen of Navarre, *Heptameron*, xli.
22. In Maulde, 354.
23. Margaret, *Heptameron*, 36.
24. In Maulde, 53.
25 Ibid .,297
26. In Sichel, *Women*, 19
27. Ibid., 371.
28. 180.
29. Boyd, *Frencb Renoissance*, 25.
30. Sichel, *Catberine de' Medict and tbe Frencb Reformation*, 138.
31. Sichel, *Women*, 104.
32. Michelet, III, 136.
33. *Damb. Mod. Hy*, I, 659.
34. Ibid.

35. Lacroix, *Prostitution*, II, 1247.
36. Margaret, *Heptameron*, Tale 22.
37. Ibid., xlii.
38. In Guizot, III, 187.
39. Ibid., 196.
40. 197.
41. Roeder, *Catherine de' Medici*, 54.
42. La Tour, II, 237 f.
43. Michelet, III, 216.
44. Guizot, III, 216.
45. Schaff, *Swiss Reformation*, 320.
46. Ibid., 320 ; La Tour, II, 556-7.
47. Sichel, *Women*, 18.
48. Guizot, III, 220.
49. La Tour, II, 612.
50. Micheler, III, 319 ; Guizot, III, 229 ; *Camb Mod. Hy*, II, 289.
51. Guizot, III, 15.
52. Ibid., 73.
53. Ibid., 91 : Michelet III, 239.
54. Guizot., III, 95.
55. Ibid., 91.
56. Michelet, III, 244.
57. Robertson, W., *Charles* 538.
58. Guizot, III, 105.6.
59. Ibid., 116.
60. *Camb. Mod. Hy*, III, 105.
61. Guizot, III, 129 ; Robertson, *Charles V*, II, 57-60.
62. Michelet, III, 316 ; *Camb. Mod. Hy*, II, 77.
63. Janssen, VI, 358.
64. Michelet, III, 293-4.
65. Hackett, *Francis I*, 428.
66. Brantôme in Guizot, III, 192.
67. Sichel, *Catherine*, 51.
68. D'Orliac, *The Moon Mistress*, 186.
69. Janssen, VI, 359.
70. Michelet, III, 366.
71. Guizot, III, 281.
72. Pastor, XII, 486.
73. Batiffol, 175.
74. Robertson, *Charles V*, II, 351.
75. Guizot, III, 261.

CHAPTER XXIII

1. Pollard, *Henry VIII*, 39.
2. Froude, *Erasmus*, 142.
3. Chambers, *Thomas More*, 99.
4. Erasmus, *Epistles* I, 457.
5. Froude, *Henry VIII*, I, 30 ; Ep. 447 in Froude, *Erasmus*, 107.
6. Seebohm, *Oxford Reformers* 261-6.
7. Erasmus, *Epistles*, II, 546.
8. Guicciardini, VIII, 126.
9. Pollard, 67.
10. Creighton, *Cardinal Wolsey*,
11. Gasquet, *Henry VIII and the English Monasteries*, I, 69.
12. Robinson, J. H., *Readings*, 303.
13. Burnet, *History of the Reformation*, I, 6.
14. Chambers, *More*, 158; Hughes, *Reformation*, I, 80.
15. Ibid.
16. Creighton, *Wolsey*, 59.
17. Burnet, I, 15.
18. Lingard, IV, 192.
19. Robinson, *Readings*, 303.
20. Pollard, 110.
21. Robinson, l. c.
22. Lingard, IV, 193 ; Chamb-

ers, *More*, 173-4 ; Hughes, I, 109.
23. Froude. *Henry VIII*, I, 60 ; but cf. Hughes, I, 58 f.
24. Hughes, I, 103n.
25. Belloc, *How the Reformation Happened*, 117.
26. Seebohm, 203-46.
27. Coulton, *Panorama*, 718.
28. Froude, *Henry VIII*, II, 114-5.
29. Hughes, I, 49-50.
30. Froude, I, 350.
31. Hughes, I, 50-66.
32. Oasqucet, *Monasteries*, II, 237 ; Trevelyan, *English Social Hy*, 73.
33. Ibid.
34. Hughes, I, 57-8.
35. Coulton, *Panorama*, 554.
36. Hughes, I, 150.
37. Ibid., 127-9.
38. 202.
39. Smith, *Luther*, 193.
40. Coulton, *Life in the Middle Ages*, II, 143; Gasquet, *Eve*, 213.
41. *Camb. Mod. Hy*, I, 640.
42. Beard, *Reformation*, 305.
43. Ibid.
44. Hughes, I, 146.
45. Froude, I, 319, 336.
46. Burnet, I, 16.
47. Gasquet, *Monasteries*, I, 85-8.
48. Froude, I, 81.
49. Burnet, I, 26.
50. Hughes, I, 67-70.
51. Pollard, 174.
52- Burnet, I, 27.
53. Pollard, 76, 176.
54. Froude, I, 74n.
55. Pollard, 183.
56. Ibid, 135.
57. Froude, *Divorce of Catherine of Aragon*, 47.
58. Pastor, X, 241.
59. Froude, *Divorce*, 47.
60. *Camb. Mod. Hy*, II, 431.
61. Pastor, X, 244.
62. Pollard, 207.
63. Ibid., 208.
64. Pastor. X, 257-8; Hughes; I, 175-9; Acton, 139.
65. Hughes, I, 176.
66. Pastor, X, 267.
67. Pollard, 225.
68. Burnet, I, 55.
69. Froude, *Reign, of Elizabeth* III, 259.
70. Froude, *Divorce*, 190.
71. Hughes, I, 181.
72. Oavendish, *Life of Wotsey*, in Froude, *Henry VIII*, III, 115.
73. Creighton, *Wolsey*, 186.
74. Pollard, 223-4.
75. Creighton, 185.
76. Burnet, I, 61.
77. Creighton, 194.
78. Froude, *Divorce*, 138.
79. Creighton, 205.

CHAPTER XXIV

1. Froude, *Divorce*, 166, 81.
2. Pollard, 250-1.
3. Trevelyan, *Social Hy*, 102.
4. Pollard, 237.
5. Froude, *Henry VIII*, I, 128-35.
6. Ibid., 139.
7. 162.
8. Sichel, *Women*, 176.
9. Lingard, IV, 273.

10. Prescott, H. F., *Mary Tudor*, 38.
11. Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 77.
12. Froude, *Henry, VIII*, I, 218.
13. Ibid., 265.
14. Pollard, 187.
15. Ibid., 300.
16. Gasquet, *Monasteries*, I, 122, 129, 134 f.
17. Pollard, 304-5.
18. Chambers, *More*, 323. 326; Lingard. IV, 19.
19. Froude, *Henry VIII*, II, 82.
20. Burnet, I, 123 5.
21. Erasnus, *Epistles*, II, 186.
22. Pollard, 305; Eroude, *Council of Trent*, 116-7.
23. Chambers, *More*, 334.
24. Prescott. *Mary Tudor*, 60.
25. Roper, *More*, 46.
26. Hughes, I, 345.
27. Cf., e.g., Chambers, *More*,
28. Erasmus, *Epistles*, II, 427.
29. Jusscrand, *Wayfaring Life*,
30. Froude, *Erasmus*, 103-7 ; Chambere, *More*, 75.
31. Chapiro, 36.
32. Erasmus, *Epistles*, II, 423.
33. Chambers,
4. More, *Utopia*, 168.
35. Ibid., 213.
36. 247.
37. Ibid.
38. 303.
39. 322-5.
40. 323·
41. 320.
42. 335.
43. 290-1.
44. 215, 347, 209.
45. 178·9.
46. 343-4.
47. Froude, *Hery VIII*, I, 347.
48. Chambers, *More*, 276.
49. Ibid., 281·
50. Cf. Coulton, *Panorama* 709.
51. More, *English Works*, 586, in Taylor, *Thougbt and Expression*, II, 68.
52. Roper, 89.
53. Ibid., 109.
54. Hearnshaw, *Tbinkers of tbe Renaissance*, 146.
55. Roper, 126.
56. Chambers, *More*, 349.
57. Froude, *Henry VIII*, II, 95.
58. Erasmus, Letters of Aug. 24 and 31, 1535.
59. Roper, 127.
60. Chambers, 277.
61. Burnet, I, 143.
62. Presoti, *Mary Tudior*, 50 ; Ponard 304.
63. Froude, *Henry VIII*, II, 142.
94. Burnet, I, 143.
65. Prescott, *Mary*, 70.
66. Pollard, 343.
67. Ibid.
68. Froude, *Henry VIII*, II, 159.
69. Lingard, V, 37,
70. Froude, II, 171.
71. Pollard, 346.
72. Ibid., 305.
73. Froude, *Henry VIII*, III, 26n.
74. Ibid., II, 204.

CHAPTER XXV

1. C. R. Beazley in Traill, *Social Englad*, III, 49.
2. Gasquet, *Eve*, 397-0.
3. Montesquieu, *Spirit of Laws*, xii, 10.
4. Froude, *Henry VIII*, II, 116.

5. Ibid , 240.
6. Pollard, 337; Gasquet, *Monasteries*, I, 254-336.
7. Pollard, 339.
8. Froude, II, 119-26.
9. Ashley, *Economic Hy*, II, 213.
10. Gasquet, I, 341-3.
11. Ibid., 291-5.
12. Froude, II, 240.
13. Gasquet, II, 82.
14. Ibid., II, 82.
15. Froude, II, 56.
16. Gasquet, I, 363 ; II, 33, 323.
17. Ibid., II, 336-7, 438.
18. Hughes, I, 328.
19. Gasquet, I', 447-8.
20. Traill, III, 129.
21. Salzman, *English Industries*, 232; *Camb. Mod. Hy*, II, 467.
22. Lecky, *Rationalism*, II, 126 ; Ashley, II, 316; Trevelyan, *Social Hy*, 112.
23. Traill, III, 128.
24. D'Alton, E. A., *Hy of Ireland*, II, 382-7 ; Joyce, *Short Hy of Ireland*, 317.
25. D'Alton, 530 f. ; Froude, *Henry VIII*, III, 166.
26. Pollard, 438.
27. Froude, III, 280.
28. Pocock in *English Historical Review*, Vol, X, p, 421.
29. Froude, III, 280.
30. Id , I', 363.
31. III, 23-4; Pollard, 399-1.
32. Lingard, V, 73-4 ; Pollard, 400 ; Froude, III, 104,
33. Froude, *Edward VI*, 68.
34. Ashley, II, 351.
35. Froude, *Edward VI*, 69.
36. Froude, *Henry VIII*. I, 52-5 ; II, 137; Traill, III, 250; Marx, *Capital*, I, 806.
37. Trevelyan, *Social Hy*. 137.
38. Froude, *Henry VIII*, I, 16n.
39. Rogers, J., *Six Centuries of Work and Wages*, 78.
40. Hughes, I, 29.
41. Traill, III, 127.
42. Hughes, I, 159.
43. Lingard, V, 61.
44. Pollard, 403.
45. Lingard, V, 76.
46. Lees-Milne, *Tudor Renaissance*, 21.
47. Froude, *Henry VIII*, III, 281-2.
48. Ibid., 402.
49. *Camb. Mod.* Hy, II, 459 ; Traill, iii, 65.
50. In Coulton, *Medieval Village*, who disagrees. Cf. Froude, *Henry VIII*, I, 43.
51. Rogers, 79 f.

CHAPTER XXVI

1. Stow's *Chronicle*, in Froude, *Edward VI*, 21.
2. Ibid., 34.
3. Hughes, II, 162; *Camb. Mod*, Hy, II, 400-1.
4. Rogers, 89.
5. Froude, *Edward*, 165.
6. ibid., 183; Prescott, *Mary Tudor*, 25.
7. Hughes, II, 192-3.
8. Robertson, *Freethought*, I, 459.
9. Froude, *Edward*, 98-101
10. Ibid., 168.
11. *Camb. Mod* Hy, II, 502.
12. Froude, *Edward*, 156.

13. Ibid., 278.
14. Ibid.
15. 163.
16. 176; Lingard, V, 228.
17. Froude, 176.
18. Ibid., 209.
19. *Camb. Mod.* Hy, II, 301.
20. Froude, 226.
21. Cf. Prescott. *Mary Tudor*, 17.
22. En. Brit., XIV, 1001.
23. Chapuys in Prescott, 50, 54.
24. Ibid.
25. En. Brit., XIV, 1000b.
26. Prescott, 122.
27. Ibid., 209.
28. Pastor, XIV, 399.
29. Froude, *Mary Tudor*, 44.
30. Prescott, 191-2.
31. Ibid., 194.
32. 196.
33. Froude, *Mary Tudor*, 66.
34. Hughes, I, 18.
35. Froude, 56.
36. Ibid., 50.
37. 56.
38. Prescott, 285.
39. Ibid., 274.
40. 266.
41. 284.
42. 315.
43 Frude. 325.
44. Prescott, 325.
45. Lingard, V, 230.
46. Prescott, 206.
47. Ibid., 302.
48. 304.
49. Pastor, XIV, 360.
50. Froude 119.
51. Prescott, 307.
52. *Camb. Mod.* Hy, II, 543.
53. Froude, 110.
54. Prescott, 311.
55. Foxe, *Acts and Monuments*, I, 231 f ; Maitland, S. R., *Essays on the Roformation*, 409 ; Smith, *Reformation*, 586, Lee, Sidney, *Dictionary of National Biograpby*, XX, 146.
56. Hughes, II, 258-y.
57. Froude, *Mary Tudor*. 199.
58. Lingard, V, 231.
59. Pastor, XIV, 370.
60. Froude, 202.
61. Ibid., 233.
62. Foxe, VIII, 82-3.
63. Ibid., 88.
64. 90.
65. Froude, 235.
66. Beard, *Reformation*, 182.
67. Hughes, II, 198.
68. Hume, *Spain : Its Greatness and Decay*, 117.
69. Prescott, 332.
70. Ibid., 381.
71. 390.

CHAPTR XXVII

1. Cf. Buckle, Hy *of Civilization*, II, ch, ii.
2. Ibid., I, 150; Belloc, How *the Reformatiou Happened*, 188.
3. Ibid., 189.
4. Lang, Hy *of Scotland*, 425.
5. Froude, *Ellzabeth*, I, 73.
6. Knox, Hy *of the Reformaion*, Introd, by W.C. Dickinson, xvii,
7. Lang, I, 300.
8. Ibid., 476.
9. Froude, *Henry VIII*, III, 298.

10. Ibid., 295. 300.
11. Knox, *History*, I, 76.
12. Ibid., 78.
13. 8.
14. 55.
15. Lang, I, 484.
16. Knox, 1, 84-5.
17. Muir, *Knox*, 119.
18. Ibid., 133.
19. 120.
20. 202.
21. Froude, *Elizabeth*, I, 257.
22. Allen, *Political Thought*, 110.
23. Knox, *History*, Introd, lxxiii; Muir, 67.
24. Knox, I, 194 and note 2.
25. Knox, Introd., xiv; cf, Muir, 300.
26. Muir, 157.
27. Lang, II, 37.
28. Knox, II, 18.
29. Ibid., 4.
30. I, 6.
31. Knox, Introd., xli.
32. Ibid., xxxix.
33. Knox, *Works*, IV, 365, 373-7.
34. Ibid., 418-20.
35. Knox, *Book of Discipline*, in Allen, *Political Thought*, 113n.
36. Ibid., 113; Lecky, *Rationalism*, II, 16.
37. Knox, Introd., xlii, and Allen, 113.
38. In Muir, 142.
39. Ibid., 148-9.
40. Lang, II, 45.
41. Knox, I, 161-2.
42. Ibid.
43. 163.
44. Lang, II, 51-3.
45. Knox, I, 164.
46. Ibid., 171-2.
47. 182; Lang, II, 54-5.
48. Knox, I, 191.
49. Knox, II, Appendix VI.

CHAPTER XXVIII

1. *Camb, Mod. Hy*, II, 602; En. Brit., VII, 210a.
2. Watson, P. B., *Swedish Revolution under Gustavus Vasa*, 123.
3. Ibid., 162.
4. 169.
5. Horn, *Literature of the Scandinavian North*, 147.
6. In Lednicki, *Life and Culture of Poland*, 107.
7. Kesten, *Copernicus*, 144.
8. *Camb. Hy of Poland*, I, 322-4.
9. Ibid., 329.
10. Lützow, *Bohemia*, 206n.
11. Tawney, 75.
12. Blok, II, 332.
13. *Camb, Mod Hy*, II, 63; Taine, *Lectures on Art* 272.
14. Pirenne, H., *Belgian Democracy*, 218.
15. Motley, J. L., *Rise of the Dutch Republic*, I, 101.
16. Smith *Reformation*, 240.
17. Blok, II, 314.
18. In Kautsky, 283.
19. Smith, 244.
02. Kautsky, 285 f.; Ranke, 75 f.
21. Motley, I 232-5.
22. Smith, 245.
23. Draper, J.W., *Intellectual Development of Europe*, II, 226.

24. Smith, 245.
25. Armstrong, *Charles, V*, II, 382-3; Robertson, *Charles V*, II, 137; Michelet, III, 293.
26. Ibid., 363.
27. 349.
28. Robinson, *Readings*, 317-9.
29. Altamira, *Hy of Spanish Civilizatlon*, 135.
30. Hume, *Spanish People*, 222-3.
31. Vernadsky, O., *Kievau Russia*, 243.
32. Wilkins, *Spanish Protestantism in the 16th Century*, 19.
33. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 8-12.
34. Wilkins, 26; *Camb. Mod. Hy*, I, 403.
35. Lea,IV, 431-8.
36. Ibid., 441.
37. Prescott, W. H. in Robertson, *Charles V*, II, 648.

Seikali.com